مقامات مادة الذوق في القرآن الكريم وأسرارها البلاغية

أ.د.عبدالعزيز بن صالح العمار

- الأستاذ بقسم البلاغة والنقد –كلية اللغة العربية – جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .
- حصل على درجة الماجستير من قسم البلاغة والنقد –كلية اللغة العربية – جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بأطروحته : "بلاغة القرآن في حديثه عن القرآن".
- حصل على درجة الدكتوراه من قسم البلاغة والنقد –كلية اللغة العربية – جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بأطروحته : "الاستفهام في الصحيحين : خصائصه التركيبية ومعانيه البلاغية "

ملخص للبحث:

يتناول البحث مقامات مادة (الذوق) في القرآن الكريم، وأسرارها البلاغية، تتبعتُ فيه هذه اللفظة، وحصرتُ مقاماتها، وبينتُ الأسرار البلاغية التي انطوت عليها هذه اللفظة في المقام الذي وردت فيه، وفي السياق الذي ضمَّها، وتتجلى أهمية هذا البحث أنه دراسة تطبيقية في إطار هذا الموضوع، يبزر من خلاله بلاغة القرآن وإعجازه.

بلغ ورود مادة (الذوق) في القرآن الكريم (٦٤) مرة، في إحدى عشرة مقاماً، كما تنوعت صيغ ورودها، فجاءت في (٢٧) صيغة في كلا العهدين: المكي، والمدني، وورودها في العهد المكي أكثر من العهد المدني.

جاء هذا البحث – بناء على طبيعته – في مقدمة، ومبحثين، وهما:

المبحث الأول: بعنوان: بين يدي آيات الذوق في القرآن الكريم، تضمن هذا المبحث ثلاثة مطالب، المطلب الأول: تعريف الذوق لغة واصطلاحاً.

المطلب الثاني: بيان المراد من المقام في الدرس البلاغي.

المطلب الثالث: آيات مادة الذوق في القرآن الكريم وصيغها.

المبحث الثاني: بعنوان: مقامات مادة الذوق في القرآن الكريم وأسرارها البلاغية

ذكرتُ فيه مقامات آيات مادة (الذوق)، وآيات كل مقام، والصيغ الواردة فيها،، وأسرارها البلاغية، من خلال الرجوع إلى كلام أهل العلم، بالإضافة إلى طول التأمل والتدبر لهذه الآيات. ثم خاتمة البحث وفهارسه.

المقدمة:

الحمد لله حمداً يليق بجلاله وكماله، حمداً له وشكرا بأن أنعم علينا بالإيمان والقرآن، والصلاة والسلام على من بعثه ربه رحمة للعالمين محمد بن عبدالله – صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الكرام، ومن اهتدى بهديه، واقتفى أثره إلى يوم الدين–، أما بعد:

فلا تخفى أهمية الدراسات القرآنية، كما لا تخفى – كذلك – بلاغة القرآن وفصاحته، وأنه الذروة العليا من البيان، كما أن سبب إعجازه، وقصورَ القوم عن معارضته، أو الإتيانَ بمثله ما تميز به من الأساليب البيانية، والأسرار البلاغية، فقد أعجز البلغاء، وحيَّر الفصحاء بحسن نظمه، وروعة أسلوبه، ولذا فهذه الدراسة وأمثالها إسهام في بيان بلاغة القرآن الكريم، وسعي للكشف عن هذه البلاغة، وبيان ذلك الإعجاز، ومن هنا جاء التوجه إلى الكتاب العزيز في الدراسات القرآنية، عسى أن يكون ذلك إسهاماً في خدمة القرآن الكريم، وإظهاراً لإعجازه وبلاغته.

جاء اختياري لموضوع **(مقامات مادة الذوق في القرآن الكريم وأسرارها البلاغية)** ؛ لأهمية هذا الموضوع في الدراسات البلاغية التطبيقية في القرآن الكريم؛ فتم من خلال هذا البحث حصر المقامات التي وردت فيها مادة (الذوق)، بعد حصر الآيات وتصنيفها، ثم التوجه إلى هذه الآيات بالدراسة والبحث، مع إمعان النظر فيها، وطول تأملها، والوقوف معها؛ لبيان أسرارها البلاغية، ونكتها البيانية، للدلالة على بلاغة مادة (الذوق) في المقام الذي وردت فيه، وأن فيها أسراراً ودقائق، ما كانت لتكون لو خلا النظم القرآني من هذه اللفظة.

قام هذا المبحث على المنهج التحليلي للآيات التي وردت فيها مادة (الذوق)، فتم النظر فيها، ودراستها دراسة متأملة متأنية في ضوء نظرية النظم، والرجوع إلى كلام أهل العلم المحققين من المفسرين والبلاغيين.

جاء هذا البحث – بناء على طبيعته – في مقدمة، ومبحثين، وهذان المبحثان هما:

المبحث الأول: بعنوان: بين يدي آيات مادة الذوق في القرآن الكريم، وقد تضمن هذا المبحث ثلاثة مطالب، المطلب الأول: تعريف الذوق لغة واصطلاحاً.

المطلب الثاني: بيان المراد بالمقام في الدرس البلاغي.

المطلب الثالث: آيات مادة الذوق في القرآن الكريم وصيغها.

أما المبحث الثاني: فهو بعنوان: مقامات مادة الذوق في القرآن الكريم وأسرارها البلاغية، ويُعد هذا المبحث لبَّ الدراسة وصلبها، وهو النظر في الأسرار البلاغية لمادة (الذوق)، وبيان مدى تحقيقها للمقام الذي وردت فيه، واشتمل هذا المبحث على: بيان هذه المقامات، وذكر آيات كل مقام، والصيغ الواردة فيها،، وأسرارها البلاغية، من خلال الرجوع إلى كلام أهل العلم، بالإضافة إلى طول التأمل، والتدبر لهذه الآيات. ثم خاتمة البحث وفهارسه.

وبعد: فهذا ما سعيتُ إلى تحقيقه، فإن تمَّ ذلك على الوجه الذي أرجوه فقد حققتُ مرادي، وذلك تفضل منه – سبحانه – وتكرم، وإن كانت الأخرى فحسبي أني بذلتُ ما استطعتُ، وإن لم أبلغ الكمال فحسبي – أيضاً – أني سعيتُ واجتهدتُ، والله وحده هو الذي يتولى أمرنا، ويوفقنا إلى السداد والصواب، والحمد لله رب العالمين .

المبحث الأول:

بين يدي آيات مادة الذوق في القرآن الكريم

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: تعريف الذوق لغة واصطلاحاً.

المطلب الثاني: بيان المراد من المقام في الدرس البلاغي.

المطلب الثالث: آيات مادة الذوق في القرآن الكريم وصيغها

المطلب الأول: تعريف الذوق لغة واصطلاحاً:

تدل مادة (الذوق) – كما يذكر ابن فارس – على أصل واحد، وهو اختيار الشيء؛ لغرض التطعم[1]، يدل على ذلك قول العرب:« ذقتُ الطعام، وتذوقته شيئاً بعد شيء، وهو مرُّ المذاق، وما ذقتُ اليوم ذواقاً، ولا تفرقوا إلا عن ذواق» .[2]

ومادة لفظة (الذوق) من باب: قال يقول، ذاقه، ذواقاً، ومذاقاً، ومذاقة، والمذاق طعم الشيء في اللسان .[3]

هذا هو المعنى الحقيقي لمادة (الذوق)، وحين الرجوع إلى معجمات اللغة فإنها لا تمدنا بأكثر من هذه المعاني الحقيقية لمادة (الذوق)؛ وذلك أن جلَّ استعمالها في اللغة العربية في المعاني المجازية، ومن هنا جاء شح المعاني الحقيقية لهذه المادة.

أشار كثير من علماء اللغة والبيان إلى هذه الحقيقة، ومن ذلك: ابن فارس، يقول – بعد أن بيَّن المعنى الحقيقي لمادة الذوق-:« ثم يُشتق منه مجازاً فيُقال: ذقتُ ما عند فلان أي اختبرته»[4]، وممن أشار إلى ذلك: ابن قتيبة، يقول:« وأصل الذوق: بالفم، ثم يُستعار فيُوضع موضع الابتلاء والاختبار»[5]، وكذلك إشارة أبي البقاء الكفوي، يقول:« ثم كثر حتى

(١) يُنظر: معجم مقاييس اللغة: مادة:ذوق.

(٢) أساس البلاغة: مادة: ذوق.

(٣) يُنظر: لسان العرب: مادة: ذوق.

(٤) معجم مقاييس اللغة: مادة: ذوق.

(٥) تأويل مشكل القرآن: ١٦٤ .

جُعل عبارة عن كل تجربة، يُقال: ذقتُ فلاناً»[١]،وممن أشار إلى هذه الحقيقة الطاهر ابن عاشور، يقول:« ولذلك اشتهر إطلاق الذوق على إدراك الآلام والعذاب، وشهرة هذه الاستعارة قاربت الحقيقة» .[٢]

ومن هنا فإن أكثر ما يُذكر في معنى مادة (الذوق) في المعجمات اللغوية معانٍ مجازية، وأكثر هذه المعاني تدور حول الاختبار، ومعرفة الشيء حق المعرفة، ومن ذلك قول العرب: ذقتُ القوس، إذا نظر الرامي منها مقدار إعطائها، ومدى قوتها[٣]،وعلى هذا المعنى جاء قول الشماخ: [٤]

فذاق فأعطته من اللين جانبا كفى ولها أن تُغرِقَ السهمَ حاجزُ

ومنه قولهم:« ذقتُ الناسَ، وأكلتهم ووزنتهم، وكلتهم فما استطبت طعومهم، ولا استرجحتُ حلومهم» [٥]، يدل على هذا المعنى – كذلك – قولهم:« وهو أمر مستذاق، أي مُجرَّب معلوم» [٦]، ومن المعاني المجازية – – كذلك – لمادة (الذوق) قولهم:« هو حسن الذوق للشعر؛ إذا كان مطبوعاً عليه» [٧]، ومنه قولهم:« لا يستذيق لي الشعر إلا في فلان» [٨]، ذكر ابن

(١) الكليات: ٤٦٢ .

(٢) تفسير التحرير والتنوير: ٧/ ٥٠ .

(٣) يُنظر: معجم أساس البلاغة: مادة: ذوق.

(٤) يُنظر: ديوان الشماخ بن ضرار الذبياني: ١٩٠ .

(٥) أساس البلاغة: مادة: ذوق.

(٦) مختار الصحاح: مادة: ذوق

(٧) المصدر السابق: مادة: ذوق.

(٨) المصدر السابق: مادة: ذوق.

خلدون السرَّ في إطلاق (الذوق) على مَن كان مطبوعاً على الشعر، يقول:« واستُعير لهذه المَلَكة عندما ترسخ وتستقر اسم الذوق الذي اصطُلح عليه أهل صناعة البيان، وإنما هو موضوع لإدراك الطعوم، لكن لما كان محل هذه المَلَكة في اللسان من حيث النطق بالكلام كما هو محل لإدراك الطعوم استُعير له اسمه» .(١)

وهكذا نرى أن أكثر هذه المعاني لمادة (الذوق) معاني مجازية، فهذه هي المعاني التي جرت بها ألسنة هؤلاء العرب الأقحاح شعراً ونثراً، وبهذا نزل القرآن الكريم، فلا غرو في هذا ولا عجب، فقد نزل بلسان عربي مبين، ولذا – وكما سيأتي بيانه – فإن أكثر استخدام القرآن الكريم لهذه المادة إنما هو في المعاني المجازية، ولذا فإن استخدام القرآن الكريم لمادة (الذوق) امتداد لاستخدام العرب لها، وقد تجلت بلاغة القرآن وإعجازه في توظيف هذه المعاني في تحقيق أغراض القرآن ومقاصده.

يدل على أن استخدام القرآن الكريم لمادة (الذوق) امتداد لاستخدام العرب لها شعرا ونثرا في المعاني المجازية: الواقعة التي وقعت بين ابن الأعرابي – وهو من علماء اللغة، وأئمة البيان – وابن الراوندي الزنديق، حين حاول القدح ببلاغة القرآن الكريم، فذكر له قوله – تعالى – في سورة النحل﴿ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾، فقال له:« هل يُذاق اللباس؟! فقال له ابن الأعرابي: لا بأس أيها النسناس، هب

(١)مقدمة ابن خلدون: ٣٤٩ .

أن محمداً ما كان نبياً، أما كان عربياً»[1]، فقد قدح جهلاً ببلاغة هذا الأسلوب، وبهذا الاستعمال، وسيأتي الحديث عن بلاغة هذه الآية، وجمال هذا الاستعمال، ولكني أردتُ من إيراد هذه الحادثة هنا: الإشارة إلى أن القرآن الكريم استخدم مادة (الذوق) كما استخدمها العرب في المعاني المجازية كما سيأتي بيانه في هذا البحث.

(١) فتح القدير: ٣/ ٢٢

المطلب الثاني: بيان المراد بالمقام في الدرس البلاغي

مما يتحتم عليَّ فعله في هذا المبحث: بيان المراد بـ(المقام)؛ إذ لـه صلة وثيقة في هذا البحث، فهي جزء من عنوان البحث، كما أنها تُتداول كثيراً في البلاغة العربية، فهي جزء من التعريف الاصطلاحي للبلاغة، فالمقام – كما عرَّفه البلاغيون -:« مراعاة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته»(١)، والحال الذي ينبغي أن يأتي الكلام على مقتضاه هو: المقام.

ولم تكن لفظة (المقام) ودلالاتها الاصطلاحية محدثة لدى المتأخرين من علماء البلاغة والبيان، فهذة اللفظة ودلالاتها معروفة من القدم في تأريخنا العربي والإسلامي، فقد وردت هذه اللفظة في الشعر والنثر بهذه الدلالة(٢)، ومن الإشارات المتقدمة في ذلك: قول الحطيئة يخاطب عمر بن الخطاب– رضي الله عنه –(٣):

تحنن عليَّ هداك المليك فإن لكل مقام مقالا

إذن فقد عرف العرب مقولة ((لكل مقام مقال))، ووردت في كلامهم شعراً ونثراً، وصارت مثلاً يتداولونها ويتناقلونها جيلاً بعد جيل، يدل على ذلك: إيراد الميداني لها في " مجمع الأمثال"، فذكر أن من أمثال العرب قولهم: ((لكل مقام مقال))، ثم بيَّن أن المراد بها:« أن لكل أمر أو فعل أو كلام موضعاً لا يُوضع في غيره». (٤)

(١)الإيضاح: ١٩

(٢)يُنظر:معجم المصطلحات البلاغية: ٦٢٧ .

(٣)يُنظر: ديوان الحطيئة برواية وشرح ابن السكيت: ٢٢٢ .

(٤) مجمع الأمثال: ٣/ ١٢٦ .

كما وردت لفظة (المقام) والمراد بها المعنى الاصطلاحي الذي يقصده البلاغيون في كتب الأدب والنقد قديماً، وثمة إشارات مهمة ومقولات عن ابن المقفع في التأكيد على أهمية المقام، والتشديد على مراعاته، والتقيد به في الكلام؛ ليكون بليغاً، يذكر ابن المقفع أن البلاغة درجات متفاوتة، وأنها اسم جامع لكثير من المعاني المندرجة تحتها، ثم ذكر علامتها، وأنها متحققة لمن يراعي المقامات المتعددة، ومن يعطي المقام حقه بما يقتضيه، يقول:« إذا أعطيتَ كل مقام حقه، وقمتَ بالذي يجب من سياسة ذلك المقام، وأرضيتَ من يعرف حقوق الكلام فلا تهتم لما فاتك من رضا الحاسد، والعدو؛ فإنهما لا يرضيهما شيء». (١)

وللجاحظ إشارات متقدمة وقيمة في الحديث عن المقام، والأمر بمراعاته، وأنها من البلاغة في الصميم، بل هي البلاغة، أشار إلى هذا الأمر في مفتتح كتابه " البيان والتبين"، مبيناً أن ((أول البلاغة: اجتماع آلة البلاغة)) (٢)، ثم ذكر علامة ذلك بقوله: ((ألا يُكلَّم سيد الأَمَة بكلام الأَمَة، ولا الملوك بكلام السوقة)). (٣)

ويؤكد هذه الحقيقة في موضع آخر، فيقول:« ومن عِلْم حَقِّ المعنى أن يكون الاسم له طِبقاً، وتلك الحال له وَقْفاً، ويكون الاسم له لا فاضلاً ولا مفضولاً، ولا مقصِّراً، ولا مشتركاً» . (٤)

(١) البيان والتبين: ١/ ١١٦ .

(٢) البيان والتبين: ١/ ٩٢ .

(٣) المصدر السابق: ١/ ٩٢ .

(٤) المصدر السابق: ١/ ٩٣ .

وأكد هذه القضية، وأعادها في كتابه الآخر (الحيوان)، فتحدث فيه عن المقام، والأمر بمراعاته، في مواضع متناثرة من الكتاب، في إشارات صريحة، وعبارات واضحة كل الوضوح في بيان أهمية المقام، والدعوة إلى مراعاته، بلغت به العناية بأمر المقام، والحفاوة به أن جعل لذلك عنواناً، وسمَّاه: ((لكل مقام مقال))، ختمه بقوله:« وقد أصاب كل الصواب الذي قال: لكل مقام مقال» .(١)

وممن أشار إلى المقام، وأهمية مراعاته، ومجيء الكلام على مقتضاه: أبو هلال العسكري، فقد تناول عبارة بشر بن المعتمر السابقة، وهي قوله: « ألا يُكلَّم سيد الأَمَة بكلام الأَمَة، ولا الملوك بكلام السوقة»، فعلق عليها بقوله:« لأن ذلك جهل بالمقامات، وما يصلحُ في كلِّ واحدٍ منهما من الكلام، وأَحْسَنَ الذي قال: لكل مقام مقال» .(٢)

هذا شيء مما ذكره المتقدمون عن المقام، والإشارة إليه، والإشادة به، وأنه من البلاغة في الصميم، بل هو البلاغة بعينها، وقد ظهرت الحفاوة بالمقام عند المتأخرين، وأظهروا مزيداً من العناية بها، والإشارة إليها، فهذا السكاكي، يعقد له في كتابه عنواناً، ويسميه: ((لكل مقام مقال))، يذكر فيه أهميته، يقول فيه:« ولا يخفى عليك أن مقامات الكلام متفاوتة، فمقام الشكر، يباين مقام الشكاية، ومقام التهنئة يباين مقام التعزية، ومقام المدح يباين مقام الذم، ومقام الترغيب يباين مقام الترغيب، ومقام الجد في جميع

(١) يُنظر: كتاب الحيوان: ٣/ ٤٣ .

(٢) الصناعتين: ٣٣ .

ذلك يباين مقام الهزل، وكذا مقام الكلام ابتداء يغاير مقام الكلام على بناء الاستخبار، أو الإنكار، ومقام البناء على السؤال يغاير مقام البناء على الإنكار، وجميع ذلك معلوم لكل لبيب، وكذا مقام الكلام مع الذكي يغاير مقام الكلام مع الغبي، ولكل من ذلك مقام غير مقتضى الآخر». [١]

ويتجلى هذا الأمر وضوحاً وتأكيداً عند الخطيب القزويني، يكفي في الدلالة على ذلك أن جعل مراعاة المقام البلاغة بعينها، ونصَّ على ذلك في تعريف البلاغة، فعرَّفها بقوله:« مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته»[٢]، ثم يأخذ في بيان هذه الحقيقة وإيضاحها، فيذكر:« أن بلاغة الكلام هي مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته، ومقتضى الحال مختلف؛ فإن مقامات الكلام متفاوتة، فمقام التنكير يباين مقام التعريف، ومقام الإطلاق يباين مقام التقييد، ومقام التقديم يباين مقام التأخير، ومقام الذكر يباين مقام الحذف، ومقام القصر يباين مقام خلافه، ومقام الفصل يباين مقام الوصل، ومقام الإيجاز يباين مقام الإطناب والمساواة، وكذا خطاب الذكي يباين خطاب الغبي». [٣]

وتبلغ حفاوة الخطيب القزويني بالمقام في إشارته إلى أن مراعاة مقتضى الحال، ومجيء الكلام وفق هذا المقتضى، أن هذا الأمر هو النظم الذي ذكره عبدالقاهر الجرجاني، ودعا إليه، يقول:« فمقتضى الحال هو الاعتبار

(١) مفتاح العلوم: ١٦٨ .

(٢) الإيضاح: ١٩ .

(٣) المصدر السابق: ١٩ .

المناسب، وهذا أعني تطبيق الكلام على مقتضى الحال، هو الذي يسميه الشيخ عبدالقاهر بالنظم». (١)

وجاء شراح التلخيص فساروا على خطا القزويني في الإشارة إلى أهمية المقام، ومن الإشارات المهمة في ذلك: ما ذكره ابن يعقوب المغربي، فقد ذكر « أن المقام والحال شيء واحد، وكذا الاعتبار، ومقتضى الحال، وأنه لا فرق بين المقام والحال في الحقيقة». (٢)

ويؤكد صاحب المطول هذا الأمر، مشيراً إلى تعدد المقامات، وضرورة مراعاتها، ومجيء الكلام وفق مقتضاها، يقول:« فعند تفاوت المقامات؛ تختلف مقتضيات الحال ضرورة، فإن الذكي يناسبه من الاعتبارات اللطيفة، والمعاني الدقيقة الخفية ما لا يناسب الغبي». (٣)

ذكر الدكتور بسيوني عبدالفتاح فيود المراد بـ: الحال، الذي يذكره البلاغيون في تعريف البلاغة، يقول:« والمراد بالحال الأمر الداعي للمتكلم أن يعتبره في كلامه خصوصية ما، ومقتضى الحال: هو مجيء الكلام مشتملاً على تلك الخصوصية التي اقتضاها الحال، فمثلاً إذا كان هناك من ينكر قيام زيد، فهذا الإنكار حال يقتضي أن يؤكد المتكلم كلامه، فيقول: إن زيداً لقائم، ومجيء الكلام مؤكداً هو مطابقته لمقتضى الحال... فالحقارة حال، والتنكير مقتضاها، ومجيء الكلام منكراً هو مطابقته لمقتضى الحال، وهكذا

(١) المصدر السابق: ١٩ .

(٢) مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح: ١/ ١٢٦ .

(٣) كتاب المطول في شرح تلخيص المفتاح: ٢٦ .

يختلف الكلام تبعاً لاختلاف الأحوال، فمقام التألم أو الخوف يقتضي الإيجاز، إذ التألم تكفيه الكلمة، والخائف تغنيه الإشارة، ومقام الأنس والتلذذ يقتضي الإطناب؛ لأن الآنس يحتاج إلى الإسهاب، وإطالة القول، والبلاغة أن يأتي الكلام مطابقاً للحال التي يُلقى فيها». [1]

(١) علم المعاني:٢٨ .

المطلب الثالث آيات مادة الذوق في القرآن الكريم، وصيغها:

المرجع الرئيس في حصر هذه الآيات، وبيان صيغها، هو كتاب: ((المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم)) لمحمد فؤاد عبدالباقي، رجعتُ إليه في هذا الحصر(١)، وقد رتبتها ترتيباً تصاعدياً بحسب عدد ورودها في القرآن الكريم، قلة وكثرة، آثرتُ ذكر آيات مادة (الذوق) منطلقاً من صيغ هذه اللفظة من خلال أزمنة الفعل الثلاثة، لأني في المبحث القادم سأذكر المقامات التي وردت فيها مادة (الذوق)، من باب التنوع، وتعدد الفائدة.

أولاً الصيغ الواردة مرة واحدة:

الفعل الماضي:

١ـ صيغة (ذاقت) وردت في القرآن الكريم مرة واحدة، وذلك في قوله – تعالى –: ﴿ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴾ [الطلاق: ٩] .

٢ـ صيغة (أذاقها) وردت في القرآن الكريم مرة واحدة، وذلك في قوله – تعالى –: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾[النحل: ١٢] .

٣ـ صيغة (أذقناك) وردت في القرآن الكريم مرة واحدة، وذلك في قوله – تعالى –: ﴿ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾[الإسراء: ٧٥] .

(١) يُنظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: ٢٧٩ .

٤ـ صيغة (ذاقا) وردت في القرآن الكريم مرة واحدة، وذلك في قوله –تعالى –: ﴿ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾ [الأعراف: ٢٢] .

الفعل الأمر:

٥ـ صيغة (ذق) وردت في القرآن الكريم مرة واحدة، وذلك في قوله – تعالى –: ﴿ ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ﴾[الدخان: ٤٩] .

٦ـ صيغة (فذوقوه) وردت في القرآن الكريم مرة واحدة، وذلك في قوله – تعالى –: ﴿ ذَٰلِكُمۡ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [الأنفال: ١٤] .

٧ـ صيغة (فليذوقوه) وردت في القرآن الكريم مرة واحدة، وذلك في قوله – تعالى –: ﴿ هَٰذَا فَلۡيَذُوقُوهُ حَمِيمٞ وَغَسَّاقٞ ﴾[ص: ٥٧] .

الفعل المضارع:

٨ـ صيغة (يذوق) وردت في القرآن الكريم مرة واحدة، وذلك في قوله – تعالى –: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٖ ﴾ [المائدة: ٩٥] .

٩ـ صيغة (يذيق) وردت في القرآن الكريم مرة واحدة، وذلك في قوله – تعالى –: ﴿ قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا مِّن فَوۡقِكُمۡ أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ شِيَعٗا وَيُذِيقَ بَعۡضَكُم بَأۡسَ بَعۡضٍۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَفۡقَهُونَ ﴾ [الأنعام: ٦٥].

١٠ـ صيغة (نذيقه) وردت في القرآن الكريم مرة واحدة، وذلك في قوله –

تعالى -: ﴿ ثَانِيَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾[الحج: ٩]

١١ـ صيغة (فلنذيقن) وردت في القرآن الكريم مرة واحدة، وذلك في قوله – تعالى -: ﴿ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [فصلت: ٢٧].

١٢ـ صيغة (تذوقوا) وردت في القرآن الكريم مرة واحدة، وذلك في قوله – تعالى -: ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [النحل: ٩٤] .

١٣ـ صيغة (ليذيقكم) وردت في القرآن الكريم مرة واحدة، وذلك في قوله – تعالى -: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[الروم: ٤٦].

١٤ـ صيغة (ليذيقهم) وردت في القرآن الكريم مرة واحدة، وذلك في قوله – تعالى -: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[الروم: ٤١].

اسم الفاعل:

١٥ـ صيغة (ذائقوا) وردت في القرآن الكريم مرة واحدة، وذلك في قوله – تعالى -: ﴿ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴾[الصافات: ٣٨].

١٦ـ صيغة (ذائقون) وردت في القرآن الكريم مرة واحدة، وذلك في قوله – تعالى -: ﴿ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ ۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴾[الصافات: ٣١] .

ثانياً الصيغ الواردة مرتين:

الفعل الماضي:

١٧ـ صيغة (أذاقهم) وردت في القرآن الكريم مرتين، وذلك في قوله – تعالى –: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾[الروم: ٣٣] .

– وفي قوله – تعالى –: ﴿ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾[الزمر: ٢٦] .

١٨ـ صيغة (أذقناه) وردت في القرآن الكريم مرتين، وذلك في قوله – تعالى –: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾[هود: ١٠].

-وفي قوله – تعالى –: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [فصلت: ٥٠].

الفعل المضارع:

١٩ـ صيغة (يذوقوا) وردت في القرآن الكريم مرتين، وذلك في قوله – تعالى –: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ٥٦] .

– وفي قوله – تعالى –: ﴿ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۖ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِىْ ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴾[ص: ٨] .

٢٠ـ صيغة (يذوقون) وردت في القرآن الكريم مرتين، وذلك في قوله – تعالى –: ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴾

[الدخان: ٥٦] .

- وفي قوله – تعالى -: ﴿ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴾[النبأ: ٢٤] .

٢١ـ صيغة (ولنذيقنهم) وردت في القرآن الكريم مرتين، وذلك في قوله – تعالى -: ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [السجدة: ٢١].

ـ وفي قوله – تعالى -: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾[فصلت٥٠].

٢٢ـ صيغة (نذيقهم) وردت في القرآن الكريم مرتين، وذلك في قوله – تعالى -: ﴿ مَتَٰعٌ فِي ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴾[يونس: ٧٠].

ـ وفي قوله – تعالى -: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِيٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴾[فصلت: ١٦].

ثالثاً الصيغ الواردة ثلاث مرات:

الفعل الماضي:

٢٣ـ صيغة (ذاقوا) وردت في القرآن الكريم ثلاث مرات، وذلك في قوله – تعالى -: ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾[الأنعام: ١٤٨] .

- وفي قوله – تعالى -: ﴿ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ۖ ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الحشر: ١٥] .

- وفي قوله – تعالى -: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[التغابن: ٥] .

الفعل المضارع:

٢٤ـ صيغة (نذقه) وردت في القرآن الكريم ثلاث مرات، وذلك في قوله – تعالى -: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الحج: ٢٥].

-وفي قوله – تعالى -: ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴾[الفرقان: ١٩].

-وفي قوله – تعالى -: ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [سبأ: ١٢].

اسم الفاعل:

٢٥ـ صيغة (ذائقة) وردت في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع، وذلك في قوله – تعالى -: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾[آل عمران: ١٨٥] .

ـ وفي قوله – تعالى -: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾[الأنبياء: ٣٥].

ـ وفي قوله – تعالى -: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [العنكبوت: ٥٧].

رابعاً الصيغ الواردة أربع مرات:

الفعل الماضي:

٢٦ـ صيغة (أذقنا) وردت في القرآن الكريم في أربعة مواضع، وذلك في قوله – تعالى –: ﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴾[يونس: ٢١] .

– وفي قوله – تعالى –: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴾[هود: ٩] .

– وفي قوله – تعالى –: ﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ [الروم: ٣٦] .

– وفي قوله – تعالى –: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ كَفُورٌ ﴾ [الشورى: ٤٨] .

خامساً الصيغ الواردة أكثر من ذلك:

وجميعها واردة بصيغة الأمر: فذوقوا

٢٧ـ صيغة (ذوقوا) وردت في القرآن الكريم اثنتين وعشرين مرة، وذلك في قوله – تعالى –: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾[آل عمران: ١٠٦] .

– وفي قوله – تعالى –: ﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾ [آل عمران: ١٨١] .

– وفي قوله – تعالى –: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَـٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ

قَالَ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴾[الأنعام: ٣٠] .

- وفي قوله – تعالى -: ﴿ وَقَالَتۡ أُولَىٰهُمۡ لِأُخۡرَىٰهُمۡ فَمَا كَانَ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلٖ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ﴾[الأعراف: ٣٩] .

- وفي قوله – تعالى -: ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمۡ عِندَ ٱلۡبَيۡتِ إِلَّا مُكَآءٗ وَتَصۡدِيَةٗۚ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴾[الأنفال: ٣٥] .

- وفي قوله – تعالى -: ﴿ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴾[الأنفال: ٥٠] .

- وفي قوله – تعالى -: ﴿ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ ﴾[التوبة: ٣٥] .

- وفي قوله – تعالى -: ﴿ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ﴾[يونس: ٥٢] .

- وفي قوله – تعالى -: ﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴾ [الحج: ٢٢] .

- وفي قوله – تعالى -: ﴿ يَوۡمَ يَغۡشَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۡ وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾[العنكبوت: ٥٥] .

- وفي قوله – تعالى -: ﴿ فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمۡۖ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٤] . وقد وردت لفظة الذوق في هذه الآية مرتين بهذه الصيغة.

- وفي قوله – تعالى -: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمۡ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾[السجدة: ٢٠] .

- وفي قولـــه – تعـــالى -: ﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ [سبأ: ٤٢] .

- وفي قوله – تعـالى -: ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾[فاطر: ٣٧] .

- وفي قولـــه – تعـــالى -: ﴿ أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ [الزمر: ٢٤] .

- وفي قوله – تعالى -: ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ [الأحقاف: ٣٤] .

- وفي قوله – تعالى -: ﴿ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ [الذاريات: ١٤] .

- وفي قوله – تعالى -: ﴿ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾ [القمر: ٣٧] .

- وفي قوله – تعالى -: ﴿ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾[القمر: ٣٩] .

- وفي قوله – تعالى -: ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴾ [القمر: ٤٨] .

- وفي قوله – تعالى -: ﴿ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾ [النبأ: ٣٠] .

المبحث الثاني: مقامات مادة الذوق في القرآن الكريم وأسرارها البلاغية:

بعد إمعان النظر في آيات مادة (الذوق) في القرآن الكريم، وبعد ضم النظير إلى مثله، وجدتُ أن هذه الآيات تنتمي إلى مقامات متعددة، فحصرتُ هذه المقامات، وحصرتُ – كذلك – آيات كل مقام، وفيما يأتي المقامات التي وردت فيها مادة (الذوق).

المقام الأول: في قصة آدم – عليه الصلاة والسلام – مع الشيطان في الجنة:

وردت مادة (الذوق) في هذا المقام مرة واحدة في القرآن الكريم، وذلك في قوله – تعالى – في سورة الأعراف: ﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٢﴾ ﴾

والشاهد في هذه الآيات في قوله – تعالى –: ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ ﴾، سبق هذا الشاهدَ قولُه: ﴿ فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ ﴾، وقوله: ﴿ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾، وهذه الأفعال كلها صادرة من الشيطان اللعين في إغوائه لآدم وزوجه – عليهما الصلاة والسلام –، ولذا فجاء قوله: ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ ﴾ استجابة لتلك الغواية، وتلبية لتلك الأفعال الصادرة من الشيطان الرجيم.

وفي قوله: ﴿ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖۚ ﴾ تعبير بليغ في الدلالة على إيحاء الشيطان، وإغوائه لآدم وزوجه، والمعنى: أنه غرهما بقوله، وخدعهما بمكره [1]، وهي

(١) يُنظر: المحرر الوجيز: ٢/ ٣٨٥ .

استعارة تمثيلية، ذكر هذه الاستعارة، وكشفها: الطاهر ابن عاشور، يقول:« وأصل دلي: تمثيل حال مَن يطلب شيئاً من مظنته فلا يجده بحال من يدلي دلوه، أو رجليه في البئر؛ ليستقي من مائها فلا يجد ماء » . (١)

كما أن فيها إشارة إلى الهبوط من الأعلى إلى الأسفل، أصلها:« الرجل العطشان يدلي في البئر؛ ليروى من الماء، فلا يجد فيها ماء، فيكون مُدَلَّى فيها بغرور، فُوضعت التدلية موضع الإطماع منها، ولا يجدي نفعاً، فيقال: دلاه إذا أطمعه » (٢)

وثمة معنى آخر ذكره ابن عطية الأندلسي، يقول:« وعندي أن يكون هذا استعارة من الرجل يدلي آخر من هوة بحبل قد أرم، أو بسبب ضعيف، يغتر به، فإذا تدلى به، وتورك عليه انقطع به فهلك، فشُبه الذي يُغر بالكلام حتى يصدقه فيقع في المعصية بالذي يُدلَّى في هوة بسبب ضعيف » (٣)

ولذا جاء قوله: ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ ﴾ استجابة لقوله: ﴿ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ﴾، وفي العطف بحرف الفاء في قوله " فلما" إشارة إلى هذا المعنى، إشارة إلى سرعة الذوق من الشجرة، بعد الوسوسة لهما، وبعد حلف الشيطان لهما، وبعد أن دلاهما بغرور، كما أن فيه إشارة إلى سرعة الجزاء، والعقاب. (٤)

جاء التعبير عن الأكل من الشجرة في هذا المقام بصيغة (ذاقا)، وثمة

(١) تفسير التحرير والتنوير: ٩/ ٦١ .

(٢) التفسير البسيط: ٩/ ٦٦ .

(٣) المحرر الوجيز: ٢/ ٣٨٥ .

(٤) يُنظر: نظم الدرر: ٧/ ٣٧٤ .

أسرار بلاغية مراد تحقيقها من هذا التعبير، ومن المهم ذكره قبل بيان هذه الأسرار، أن أبين أن المراد بالذوق هنا: الأكل، على وجه الحقيقة، خلافاً لما ذهب إليه الدكتور عبدالعظيم المطعني، يقول – بعد أن تحدث عن بلاغة مادة (الذوق) في القرآن الكريم -: « وقد علمنا أن هذا التعبير مجاز استعاري في جميع صوره في القرآن الكريم، حتى في قوله: ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ ﴾ »[1]، فأقول: صحيح أن استخدام القرآن الكريم لمادة (الذوق) مجاز في كل مواضعها – كما سيأتي بيانه في هذا البحث – إلا في هذا الموضع، فاستخدام القرآن لها هنا من باب الحقيقة، وليس من المجاز، وثمة أسباب تجعلني أقول هذا القول، وآخذ به، ومن هذه الأسباب ما يأتي: ورود عبارات لكثير من المفسرين في الدلالة على أن المراد من قوله:﴿ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ ﴾: الأكل، ومن ذلك:الطبري، يقول:« فلما ذاق آدم وحواء ثمرة الشجرة، يقول: طعماه»[2]، وكذلك البغوي، يذكر أن معنى قوله: ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ ﴾ **أي:** فلما أكلا منها[3]، وكذلك أبو حيان الأندلسي، ذكر أن قوله:﴿ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ ﴾« **أي:** وجدا طعمها، آكلين منها».[4]

ومن الأدلة – كذلك-: التعبير في مواضع أخرى في القرآن الكريم في الحديث عن قصة آدم – عليه السلام – بالأكل دون الذوق، ومن ذلك قوله

(١) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية: ٢/ ٤٠٣ .

(٢) المصدر السابق: ٢/ ٤٠٣ .

(٣) يُنظر: معالم التنزيل: ٢/ ١٥٣ .

(٤) تفسير البحر المحيط: ٤/ ٢٨٠ .

– تعالى– في سورة طه: ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴿١٢١﴾ ﴾، استدل الرازي بهذه الآية على أن الأكل في الآية حقيقة، يقول:« وذلك يدل على أنهما تناولا اليسير؛ قصداً إلى معرفة طعمه، ولولا أنه – تعالى– ذكر في آية أخرى أنهما أكلا منها، لكان ما في هذه الآية لا يدل على الأكل؛ لأن الذائق قد يكون ذائقاً من دون أكل».[1].

وأما السرُّ البلاغي في مجيء صيغة (فأكلا) في سورة طه، وصيغة (ذاقا) في سورة الأعراف؛ فذلك توافق مع مقام كل سورة، وموضوعاتها، والألفاظ المعبرة عن هذه المقامات، فقد« عُبِّر بالأكل في طه؛ لمناسبة التصريح بالمعصية، والغواية فيها، والتصريح بلفظ الجوع، وأما الذوق في الأعراف؛ فمناسب للنهي عن الاقتراب من الشجرة، ولمقام السورة – أيضاً– القائم على التحذير».[2]

من لطائف التعبير بمادة (الذوق) في هذا المقام في الدلالة على الأكل من الشجرة: أن فيها إشارة إلى أنهما تناولا جزءاً يسيراً من الشجرة، وأن المقصود من هذا الأكل اليسير هو: معرفة الطعم، وليس الإقدام على المخالفة، والوقوع في المحظور، وثمة فرق بين ذوق الطعام، وبين أكله، فقد يكون ذوقاً دون أكل، وقد ذكر الزمخشري أن معنى قوله: ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ ﴾: أي وجدا طعمهما،

(١) التفسير الكبير: ١٤/ ٤٩ .

(٢) متشابه النظم القرآني في قصة آدم عليه السلام: ١٩٤ .

آخذين في الأكل منها .[١]

ومن دلالات مادة (الذوق) في هذا المقام: أن فيها إشارة إلى « أن الذي حذَّرهما الله منه وقع بمجرد أن ذاقا الشجرة، فضلاً عن الأكل منها، فكان الخير في امتثال أمر الله، وإلا فإن يسير المخالفة موقع في الضرر، وفي هذا إشارة إلى عظمة حكمة الله فيها ينهى عنه، أو يأمر به».[٢]

ومن بلاغتها – كذلك-: الإشارة إلى عِظَم الذنب الذي اقترفاه، وأنه في هذا المقام يستوي فيه القليل والكثير، والصغير والكبير، ولذا قيل: لا تنظر إلى صغر المعصية، ولكن انظر إلى عظمة من عصيت، « وهذا درس عظيم للمسلمين من بعد في التحذير من المعصية، حتى ولو كانت صغيرة، أو على وجه النسيان، حيث لم يمنع ذلك كله من اعتبار هذه المخالفة معصية، فكيف بمن يرتكب الكبيرة عمداً؟!».[٣]

إذن دلت هذه اللفظة في هذا المقام: على تعظيم الذنب، والتحذير من القرب منه، فضلاً عن الوقوع فيه واقترافه؛ وذلك أن الذوق مقدمات الأكل، ولا يكون إلا نزراً يسيراً، ومع ذلك فقد دلت هذه الآية – من خلال مادة (الذوق)-: « على أن بدو سوآتهما حصل عند أول إدراك طعم الشجرة؛ دلالة على سرعة ترتب الأمر المحذور عند أول المخالفة».[٤]

---

(١) يُنظر: الكشاف: ٢/ ٧٣ .

(٢)دراسات جديدة في إعجاز القرآن: ٣٢٤ .

(٣) متشابه النظم القرآني في قصة آدم عليه السلام: ١٩٥ .

(٤) تفسير التحرير والتنوير: ٩/ ٦٢ .

المقام الثاني: ورود مادة (الذوق) في مقام تحذير النبي – عليه الصلاة والسلام – من اتباع المشركين: وبيان محاولات كفار قريش، وحرصهم على فتنة الرسول – صلى الله عليه وسلم –وذلك في قوله – تعالى – في سورة الإسراء: ﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ﴾ .

ومعنى هذه الآيات – كما يذكر ابن كثير–: أنها إخبار من الله – سبحانه وتعالى – « عن تأييده لرسوله – صلوات الله وسلامه عليه –، وتثبيته، وعصمته، وسلامته من شر الأشرار، وكيد الفجار، وأنه – تعالى – هو المتولي أمره ونصره، وأنه لا يكله إلى أحد من خلقه، بل هو وليه، وحافظه، وناصره، ومؤيده، ومظهر دينه على من عاداه، وخالفه، وناوأه في مشارق الأرض ومغاربها».[1]

إذن فهذه هي الأمور التي أنجى الله منها رسوله محمداً – صلى الله عليه وسلم –، فقد ثبته وعصمه من ذلك كله.

ذكر – سبحانه – عقوبة رسوله لو حدث منه شيء من ذلك، – حاشا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ذلك، في قوله – تعالى–: ﴿ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ﴾ .

جاءت مادة (الذوق) في هذا المقام في الدلالة على شدة العذاب، وتحققه

(١) تفسر القرآن العظيم: ٣/ ٥٩ .

وتمكنه من المعذَّب، يدل على عِظم العذاب: عِظم الجرم، وشدة الذنب، فإن الجزاء من جنس العمل، تم التعبير عن عِظم هذا العذاب وشدته بصيغة(أذقناك)، ولكن هذا العذاب لم يحدث؛ لعدم حدوث الفعل من رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، وذلك أن معنى الآية:« لو فعلتَ ذلك لأذقناك ضعف عذاب الحياة، وضعف عذاب الممات، يعني أضعفنا لك العذاب في الدنيا والآخرة».[١]

ولذا فإن من دلالات مادة (الذوق) وبلاغتها في هذا المقام: أن فيها إشارة صريحة، ودلالة أكيدة على علو مقام رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، وارتفاع شأنه، وأنه في المقام الأعلى، والمحل الرفيع؛« وذلك أن القبيح يعظم قبحه بمقدار عظم شأن فاعله، وارتفاع منزلته» [٢]، أشار إلى هذا المعنى السعدي، فربط بين شدة العذاب، وبين علو مقام رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: يقول – في بيان معنى هذه الآية –:« أي لأصبناك بعذاب مضاعف في الدنيا والآخرة؛ وذلك لكمال نعمة الله عليك، وكمال معرفته».[٣]

ثم ختم – سبحانه – الآية بقوله ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾، وثمة ارتباط بين خاتمة الآية، وبين التهديد لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – بإذاقته العذاب، تجلى هذا الارتباط، وظهر من خلال العطف بين الجملتين بحرف

(١) معالم التنزيل: ٣/ ١٢٧ .

(٢) الكشاف: ٢/ ٤٦١ .

(٣) تيسير الكريم الرحمن: ٣/ ١٢٥ .

العطف " ثم"، أشار إلى هذا الارتباط الطاهر ابن عاشور، يقول: « " ثم" للترتيب الرتبي؛ لأن عدم الخلاص من العذاب أهم من إذاقته، فرتبته في الأهمية أرقى».[1]

ومن هنا يتبين – من خلال قوله ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾ – أن فيها تهديداً عظيماً، وزجراً شديداً عن الركون إلى المشركين، تم التعبير عن عقوبة الركون إليهم بإذاقته العذاب، مما يدل على شدته، ويبين عظمته، وأنه عذاب دائم لا ينقطع، وجاءت صيغة (أذقناك) في الدلالة على هذا المعنى وتأكيده، مما يدل على أن لها أثراً وتأثيراً في الدلالة على هذا المعنى في هذا المقام، ومن هنا يتجلى سرُّ إيثار مادة (الذوق) في هذا المقام، والله – تعالى– أعلم بمراده.

المقام الثالث: في بيان نعيم أهل الجنة في أنهم لا يموتون فيها: وذلك في قوله – تعالى – في سورة الدخان: ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ ۖ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ ﴾ .

تتحدث هذه الآيات عن النعيم المقيم للمؤمنين في الجنة، ومن أجل النعيم الذي هم فيه أنهم﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ ﴾، جاء نفي الموت عنهم بقوله: " لا يذوقون"، فما السرُّ في اختيار مادة (الذوق) في هذا المقام في الحديث عن نعيم المؤمنين في الجنة؟ جاءت في هذا المقام متوافقة مع الغرض الذي سيقت له هذه الآيات، ومحققة كمال النعيم الذي يتنعم به المؤمنون في الجنان، فهم خالدون مخلدون.

(١) تفسير التحرير والتنوير: ١٤/ ١٧٧ .

ومن هنا نُفي عنهم مقدمات الموت وأسبابه، كما أن الذوق مقدمة الأكل والشرب، والمعنى: أن المؤمنين في الجنان« لا يتجدد لهم أوائل استطعامه، فكيف بما رواء ذلك؟» [١]، فهم لا يذوقون في الجنة طعم الموت، بَلْه غصصه وسكراته وآلامه، كيف وهم قد جربوا ذلك وقاسوا آلامه في الدنيا؟!.

في مادة (الذوق) في هذا المقام دلالة على كمال نعيمهم، وبيان مقدار سرورهم، وشدة حبورهم؛ وذلك لهم وحدهم، فإن قيل:« أليس أهل النار لا يموتون؟ فلِمَ بُشر أهل الجنة بهذا مع مشاركة غيرهم في هذا المعنى؟ قيل: إن أهل الجنة في حياة هنيئة، بشارتهم بالخلود تزيدهم سروراً، وقرة عين، وأهل النار يموتون موتات كثيرة؛ بما يقاسون من الشدة، وانتفاء الموت عنهم يزيدهم حسرة، وشدة وجد». [٢]

جاءت مادة (الذوق) في هذا المقام؛ لتحقيق هذه المعاني كلها، ولتحقق معنى الآية، ولتزف لهم البشرى أنهم في الجنة لا يموتون أبداً، فالاستثناء في الآية استثناء منقطع، والمعنى: سوى الموتة الأولى التي ذاقوها في الدنيا[٣]، ولذا فقد تعددت أقوال المفسرين في بيان معنى " إلا" فقيل: إنها بمعنى: "سوى"، والمعنى: أي سوى الموتة الأولى التي ذاقوها في الدنيا[٤]،، وقيل:

(١)نظم الدرر: ١٨/ ٥٠ .

(٢) التفسير البسيط: ٢٠/ ١٢٦ .

(٣) يُنظر: فتح القدير: ٤/ ٢٧٩ .

(٤) يُنظر: معالم التنزيل: ٤/ ١٥٥ .

إنها بمعنى: "بعد"، أي بعد الموتة الأولى، وقد ذاقوها. (١)

فهذا التعبير من تأكيد الشيء بما يشبه ضده، والسرُّ البلاغي من هذا الأسلوب:«زيادة تحقيق انتفاء ذوق الموت عن أهل الجنة، فكأنه قيل: لا يذوقون فيها الموت ألبتة، وقرينة ذلك وصفها بالأولى». (٢)

ومن هنا جاءت صيغة " لا يذوقون" في هذا المقام؛ لتدل على عظيم النعيم الذي يتنعم به المؤمنون في الجنة، وأنه نعيم عظيم لا تبلغه أعمالهم، وإنما هو فضله – سبحانه تعالى –، وكرمه بعباده المؤمنين، وجاء قوله – تعالى – بعدها: ﴿ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ ﴾؛ إشارة إلى هذه الحقيقة، والمعنى:«أن حصول النعيم، واندفاع العذاب عنهم من فضل الله عليهم وكرمه، فإنه – تعالى– هو الذي وفقهم للأعمال الصالحة، التي بها نالوا خير الآخرة، وأعطاهم – أيضاً– ما لم تبلغه أعمالهم». (٣)

المقام الرابع: في مقام الرحمة في الدنيا: وذلك في قوله – تعالى – في سورة الروم: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ يذكر – سبحانه – في هذه الآية شيئاً من نعمه على المؤمنين، وصورة من صور قدرته، فمن نعمه – سبحانه وتعالى – على المؤمنين: ﴿ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ ﴾ وإرسالها من دلائل رحمته بعباده، وبديع قدرته، وفي مجيء لفظة " الرياح" جمعاً إشارة إلى تعدد هذه الرياح

(١) يُنظر: التفسير البسيط: ٢٠/ ١٢٧ .

(٢) تفسير التحرير والتنوير: ٢٥/ ٣١٩ .

(٣) تيسير الكريم الرحمن: ٤/ ٤٧٢ .

وتنوعها، والمراد بها: رياح الجنوب والشمال، والصبا، وكلها رياح خير ورحمة، بخلاف الدبور؛ فإنها ريح عذاب[١]، كما أن فيها إشارة إلى الخير الذي تحمله في طياتها، وقد أكد هذا المعنى وصفها بلفظة " مبشرات"، فهي تبشر بالغيث، ونزول المطر[٢]، ولذا فهي مؤذنة بالخير العميم على العباد.

عُبر عن الإفادة من هذه الرحمة كلها، وبأنواعها المتعددة بمادة (الذوق) في قوله:" وليذيقكم" فتضمن هذا التعبير أسراراً بلاغية، مراد تقريرها في هذا المقام، فكما أن الذوق مقدمة للطعام، والاستمتاع به، فكذلك المطر هنا، فهو مقدمة لهذا المنافع كلها، ولذا يستبشر الناس بقدومه، ونزوله عليهم؛ وكذلك هذه الرياح فهي مؤذنة بالخير، مبشرة بقدومه، فهي مقدمة لكل المنافع التي تم ذكرها في هذه الآية في قوله: ﴿ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ .

وكما أن الذائق لا يتذوق إلا شيئاً قليلاً، إذ لو كان كثيراً لصار أكلاً، ومن هنا دلت مادة (الذوق) في هذا المقام على أن القليل من رحمة الله كثير بمنافعه، كثير بما يترتب عليه من المصالح والمنافع، وهذا المطر الذي أنزله – تعالى – على عباده تعددت منافعه، وتنوعت مصالحه، يدل على هذا المعنى ويؤكده أن ذُكرتْ في هذه الآية عدة منافع يتحصل عليها العباد من نزول المطر، فترتب على نزول المطر قوله:﴿ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ ﴾، وقوله:﴿ وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ ﴾، وقوله:﴿ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ ﴾، وغيرها من النعم التي لا يعلمها

(١) يُنظر: الكشاف: ٣/ ٢٢٥ .

(٢) يُنظر: تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٤٨ .

العباد، ولا يقدرونها قدرها، ولذا خُتمت الآية بقوله: ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ ؛ إشارة إلى كثرة هذه النعم، وتنوعها.

وفي مجيء لفظة " تشكرون" في هذا المقام، وختم الآية بها: أمر غير مباشر بما ينبغي أن يكون عليه حال العباد مع هذه النعم، وهذا هو المقصود من ذكر هذه النعم، وتعدادها عليهم، وهو:« أن تُقابل بشكر الله – تعالى-؛ ليزيدكم الله منها، ويبقيها عليكم، وأما مقابلة النعم بالكفر والمعاصي فهذه حال مَنْ بدَّل نعمة الله كفراً، ومنحته محنة، وهو معرِّض لها للزوال، والانتقال منه إلى غيره».[1]

كما دل حرف الجر " من" في قوله: " من رحمته" على هذا المعنى، فقد أذاقهم – سبحانه – شيئاً من رحمته، ونزراً قليلاً منها، ومن ثَم جاءت مادة (الذوق) في هذا المقام؛ للدلالة على هذا المعنى، والقليل منه – سبحانه – كثير؛ بمنافعه وآثاره؛ لأنه من الجواد الكريم، أشار الرازي إلى السرِّ البلاغي في التعبير بمادة (الذوق) في هذا المقام، يقول:« وقد ذكرنا أن الإذاقة تُقال في القليل، ولما كان أمر الدنيا قليلاً، وراحتها نزر، قال: " وليذيقكم"، وأما في الآخرة فيرزقهم، ويوسع عليهم، ويديم لهم».[2]

جاءت صيغة " ليذيقكم" فعلاً مضارعاً دلالة على التجدد والاستمرار، وذلك مظهر من مظاهر قدرته – سبحانه -، ومظهر – أيضاً – من مظاهر الرحمة، ومظهر من مظاهر الجود الدائم الذي لا ينقطع خيره، ولا يزول

(١) تيسير الكريم الرحمن: ٤/ ٩٣ .

(٢) التفسير الكبير: ٢٥/ ١٣١ .

أثره، والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

المقام الخامس: في مقام الموت وخروج الروح من الجسد: وردت مادة (الذوق) في هذا المقام في ثلاثة مواضع من القرآن الكريم، وهذه المواضع هي:

١ــ في سورة آل عمران، في قوله: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۖ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ﴾.

٢ــ في سورة الأنبياء، في قوله: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةًۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

٣ــ في سورة العنكبوت، في قوله: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾. وثمة عدة وقفات مع مادة (الذوق) في هذه الآيات الثلاث، الواردة في مقام الموت والاحتضار:

الوقفة الأولى: جاءت مادة (الذوق) في هذه الآيات الثلاث في ثلاث سور مختلفات، تنوعت هذه السور بين المكي والمدني، فآية آل عمران مدنية، والآيتان الواردتان في سورتي الأنبياء والعنكبوت مكيتان[1]، ولهذا الأمر دلالة تحسن الإشارة إليها، وهي أن الحديث في هذه الآيات عن الموت، وهو نهاية كل إنسان، مؤمناً كان أو كافراً، فهي لا تخص قوماً دون قوم، وإنما سيأتي الموت على الجميع أياً كانوا بغض النظر عن دينهم وديانتهم، وباختلاف معتقداتهم، سواء كان مؤمناً بالموت والجزاء أو كافراً به، جاحداً

(١) يُنظر: البرهان في علوم القرآن: ١/ ١٩٣ .

له، ومن هنا تعدد نزول هذه الآيات، وجاءت هذه الحقيقة مقررة في كلا العهدين: المكي والمدني، إشارة إلى هذا الأمر، ودلالة عليه.

ولعل كثرة ورودها في العهد المكي على المدني إشارة إلى أن المقصود من ذكر الموت هو ما بعده، من البعث؛ للجزاء والحساب، والمشركون في مكة ينكرون هذه القضية، ولا يؤمنون بها، ولذا تكرر نزول هذه الآيات عليهم؛ تذكيراً لهم بهذه القضية، من أجل إقامة الحجة عليهم، وإلزامهم بها، ذكرى، ولعلهم يتقون.

الوقفة الثانية: جاء الإخبار بموت كل نفس بقوله: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾، اتحدت هذه الصيغة في جميع الآيات الثلاث، فجاءت جميعاً من خلال الجملة الاسمية؛ إشارة إلى ثبات هذه الحقيقة وديمومتها؛ وذلك من خلال دلالة الجملة الاسمية على الثبات والدوام، إذن فهي حقيقة ثابتة مقررة، لا تقبل التغيير، كما أن الموت حكم قاطع، ومقرر على كل نفس، فالموت خاتمة المطاف، ونهاية كل المخلوقات، جاءت صياغة هذه الحقيقة من خلال الجملة الاسمية متوافقاً مع الغرض الذي سيقت له هذه الآيات؛ وذلك أن المقصود من هذه الآيات – كما يذكر الرازي –: «هو تأكيد تسلية الرسول – عليه السلام –، والمبالغة في إزالة الحزن من قلبه، وذلك من وجهين: أحدهما: أن عاقبة الكل الموت، وهذه الغموم، والأحزان تذهب وتزول ولا يبقى منها شيء، والحزن متى كان كذلك لم يلتفت العاقل إليه، والثاني: أن بعد هذه الدار داراً يتميز فيها المحسن عن المسيء، ويتوفر على عمل كل واحد ما يليق به من الجزاء، وكل واحد من هذين الوجهين في

غاية القوة في إزالة الحزن، والغم عن قلوب العقلاء».[١]

الوقفة الثالثة: الحديث عن الموت في الآيات الثلاث جاء بمادة (الذوق)، في قوله: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾، فما الأسرار البلاغية في التعبير بهذا الأسلوب؟ وما دلالات مادة (الذوق) في هذا المقام؟ صيغة (ذائقة) في جميع الآيات استعارة، وهي استعارة تصريحية تبعية، أُطلقت هذه الصيغة والمراد بها: وجدان الموت، وشاع إطلاق هذه الاستعارة على وقوع الموت[٢]، وتكرر هذا المعنى في كتاب الله –عزَّ وجل–، وفي لغة العرب، ومن ذلك قوله – تعالى –: ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [الدخان: ٥٦]، ومنه قول العرب: ذاق طعم الموت، ومنه قول أمية بن أبي الصلت:.[٣]

من لم يمت غبطة يمت هرما الموت كأس والمرء ذائقها

ومن هنا جاءت مادة (الذوق) في هذا المقام؛ تشير إلى هذا المعنى، وتدل عليه، فـ« جُعل الموت في مقاساة الآلام، والأسباب التي يحدث عندها الموت كالطعام الذي يُكره ذوقه، فلذلك استُعير له الذوق، وهو في الحقيقة عَرَض لا يُذاق».[٤]

ومعنى الآية:« أن كل نفس ذائقة موت أجسادها، إذ النفس لا تموت، ولو

(١) التفسير الكبير: ٩/ ١٢٤ .

(٢) يُنظر: المحرر الوجيز: ١/ ٥٥٠، و: تفسير التحرير والتنوير: ٤/ ١٨٨ .

(٣) يُنظر: ديوان أمية بن أبي الصلت: ٤٢١ .

(٤) التفسير البسيط: ٢٠/ ١٢٦ .

ماتت لما ذاقت الموت في حال موتها؛ لأن الحياة شرط في الذوق، وسائر الإدراكات» [1]، وهذا المعنى صحيح؛ وذلك« أن الذائق لا بد أن يكون حال ذوقه حياً حساساً» [2]، يؤكد هذا المعنى ما ذكر الطبري في تفسيره، مبيناً أن المعنى:«كل نفس منفوسة من خلقه معالجة غصص الموت، ومتجرعة كأسها».[3]

جاء التعبير عن الموت بالذوق؛ إشارة إلى مقدماته، وما يصيب النفس منه من آلام غصصه، ومعاينة مقدماته، والمراد: أن النفس فيه تذوق مرارة مفارقتها للجسد[4]، وكما أن الذوق مقدمة للأكل، فكذلك الذوق هنا مقدمة لما سيأتي بعده من سكرات الموت، وغصصه وآلامه، فالمراد بذوق الموت هنا:«ذوق آلام مقدماته، وأما بعد حصوله فلا إحساس للجسد».[5]

الوقفة الرابعة: جاء ذكر هذه الحقيقة في صدر الآيات الثلاث كلها، افتُتحتْ بقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾، ثم اختلفت كل واحدة منها في نهايتها، إشارة إلى اختلاف مصير كل إنسان بعد الموت، بين المؤمن والكافر، أشار إلى هذه الحقيقة، وكشف سرَّ ذلك سيد قطب، حين قال:« الكل يموت﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ كل نفس تذوق هذه الجرعة، وتفارق هذه

(١) الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين: ١/ ٥٢٤ .

(٢) نظم الدرر: ٥/ ١٤٥ .

(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ١٦/ ٢٨٦ .

(٤) يُنظر: إرشاد العقل السليم: ٦/ ١٦٦ .

(٥) تفسير التحرير والتنوير: ١٧/ ٦٤ .

الحياة، لا فرق بين نفس و نفس في تذوق هذه الجرعة من هذه الكأس الدائرة على الجميع، إنما الفارق في شيء آخر، الفارق في قيمة أخرى، الفارق في المصير الأخير: ﴿ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ هذه هي القيمة التي يكون فيها الافتراق، وهذا هو المصير الذي يفترق فيه فلان عن فلان، القيمة الباقية التي تستحق السعي والكد، والمصير المخوف الذي يستحق أن يحسب له ألف حساب »[1]، ولأن الفوز الحقيقي محصور في قوله: ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾، فكل النفوس ستذوق الموت، ولكن ليس كل هذه النفوس ستُزحزح عن النار، وتدخل الجنة؛ حتى تفوز الفوز الكامل.

ومن بلاغة القرآن الكريم: الجمع بين " زحزح عن النار" وبين " أدخل الجنة"، « مع أن في الثانية غنية عن الأولى، للدلالة على أن دخول الجنة يشتمل على نعمتين عظيمتين: النجاة من النار، ونعيم الجنة »[2]، كما أن في ذكر الأمرين معاً تحقيق لمعنى الفوز، فضلاً عن دلالات لفظة " زحزح" في هذا المقام وإيحائها في هذا السياق

المقام السادس: في مقام الحديث عن الأمم السابقة: وردت مادة (الذوق) في هذا المقام في أربعة مواضع من القرآن الكريم، وهي:

١ــ في سورة الأنعام، في قوله – تعالى- : ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا

(١)في ظلال القرآن: ١/ ٥٣٣ .

(٢) تفسير التحرير والتنوير: ٤/ ١٨٨.

أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ ﴾ .

٢ـ في سورة الحشر، في قوله – تعالى-: ﴿ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾ .

٣ـ في سورة الطلاق، في قوله – تعالى-: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴾.

٤ـ في سورة التغابن، في قوله – تعالى-: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾ ﴾ .

وهذه وقفات مع هذه الآيات؛ للنظر في الأسرار البلاغية في مجيء لفظة (الذوق) في هذا المقام

الوقفة الأولى: أن السور التي نزلت فيها هذه الآيات متنوعة بين المكي والمدني، فالأنعام مكية، وبقية السور الأخرى مدنية[1]، ولا غرو أن تتنوع السور في الحديث عن هلاك الأمم السابقة، وبيان حالها، وما ألمَّ بها، وما آلت إليه لما كفرت، وكذبت بآيات ربها ورسله؛ وذلك أن الحديث عن حال الأمم السابقة يراد منه أخذ العظة والعبرة، وهذا الأمر من الأهمية بمكان، كما أنه ليس مرتبطاً بزمان ولا مكان، ولذا تكرر بيانه، وتعددت الآيات في الحديث عنه على امتداد العهدين: المكي، والمدني، فكفار قريش في مكة

(١) يُنظر: البرهان في علوم القرآن: ١/ ١٩٣ .

بحاجة إلى النظر في أحوال الأمم السابقة؛ للاتعاظ بحالهم، وعدم السير على خطاهم؛ لكيلا يصيبهم ما أصابهم، وكذلك المؤمنون في المدينة، ومن كان معهم من الطوائف الأخرى من اليهود والمنافقين بحاجة – كذلك – إلى النظر في أحوال الأمم السابقة، والوقوف عند مصيرهم، وكيف أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر؛ بغية الاتعاظ والادكار، ومن هنا جاءت مادة (الذوق) في هذا المقام في العهدين: المكي، والمدني؛ إشارة إلى هذا المعاني كلها، وتأكيدها، والتذكير بها.

الوقفة الثانية: جاءت مادة (الذوق) في هذا المقام في جميع هذه الآيات بصيغة الفعل الماضي "فذاقوا"، " فذاقت"، وهو أمر طبعي – كذلك-؛ لأن الحديث في هذه الآيات جميعاً عن وقائع حدثت وانتهت، فقد مضت وانقضت، فقد حدثت هذه الأفعال في الزمن الغابر قبل نزول هذه الآيات، وقبل وجود الأمة المحمدية، كما أن في هذه الصياغة مزيداً من التهديد والوعيد؛ إشارة إلى أن أمر الله وقع، ونفذ فيهم، وأنه لا راد لقضائه، أشار بعض المفسرين إلى التهديد الذي تضمنته هذه الآيات، ومن ذلك قول الإمام الطبري:« وهؤلاء الآخرون مسلوك بهم سبيلهم إن هم لم ينيبوا، فيؤمنوا ويصدقوا بما جئتهم به من عند ربهم»[(١)]، وكذلك ابن عطية الأندلسي يقول – في معنى قوله :﴿ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ ﴾-: أنه وعيد بيّن[(٢)]، ويقول سيد قطب – في الإشارة إلى هذا المعنى-: « والخطاب هنا للمشركين

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ٩/ ٦٥٠ .

(٢) يُنظر: المحرر الوجيز: ٢/ ٣٥٩ .

غالباً، وهو تذكير لهم بعاقبة المكذبين، وتحذير لهم من مثل هذه العاقبة». [1]

الوقفة الثالثة: جاء في الآية الأولى في سورة الأنعام في الحديث عن الأمم السابقة قوله: ﴿ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ﴾، والمراد بـ" البأس" هنا: العذاب[2]، وفي التعبير بلفظة (البأس) إشارة إلى شدته، وعظمته، وأنه لا حول لهم ولا قوة على رده ودفعه، يدل على عظمته: إضافة (البأس) إلى ضمير العظمة لله – سبحانه وتعالى–، فأنى لهم – والحالة هذه – رده أو مقاومته؟! كيف وقد استحقوا هذا العذاب؟! بدلالة الحرف "حتى" على الغاية، فهو « غاية لامتداد التكذيب إلى وقت العذاب؛ لأنه إذا حلَّ العذاب لم يبق تكذيب». [3]

وأما الآيات الثلاث الأخر فجاء الحديث عن هلاكهم بقوله: ﴿ ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ ﴾، وقوله: ﴿ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا ﴾، وقوله: ﴿ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ ﴾، والمعنى: عقوبة فعلها، وجزاء أمرها الذي أقدمت عليه[4]، والمعنى – كما يذكر ابن كثير–:« أي وخيم تكذيبهم، ورديء أفعالهم، وهو ما حلَّ بهم في الدنيا من العقوبة والخزي». [5]

بيد أن الآيات الثلاث سلكت مسلكاً بديعاً في التعبير عن هذا المعنى، وذلك في قوله: ﴿ وَبَالَ أَمْرِهِمْ ﴾؛ وذلك أن الوبال: هو الشدة والثقل المترتبة على جزاء

(١) في ظلال القرآن: ٦/ ٣٥٨٦ .

(٢) يُنظر: معالم التأويل: ٣/ ١٣٩ .

(٣) تفسير البحر المحيط: ٤/ ٢٤٨ .

(٤) يُنظر: معالم التنزيل: ٤/ ٣٦١ .

(٥) تفسير القرآن العظيم: ٤/ ٣٩٥ .

الأفعال[١]، مأخوذ من قولهم: كلأ وبيل، أي وخيم، إذا كان سيء العاقبة[٢]، وأصل الوبال: ((وخامة المرعى، المستلذ للماشية، يقال:كلأ وبيل، إذا كان مرعى خضراً، حلوا تهمش إليه الإبل، فيحبطها، ويمرضها، أو يقتلها)) . [٣]

ومن هنا جاءت لفظة "وبال" إشارة إلى أن ما أقدموا عليه خطب فظيع، وجناية عظمى[٤]؛ وذلك« أنها كالشيء الثقيل المحسوس؛ وذلك لأن الوبال في الأصل: الثقل، ومنه الوبيل للطعام الذي يثقل على المعدة، والوابل من المطر: الثقيل القطر ». [٥]

الوقفة الرابعة: جاء التعبير عن هلاك الأمم، وما حلَّ بها من العذاب بمادة (الذوق)، فما سرُّ مجيء هذه المادة في هذا المقام؟ جاءت في هذا المقام؛ لأن فيها مزيداً من الحِكَم والأسرار التي تظهر الغرض، وتحقق المقصود من هذه الآيات، ففيها إشارة إلى شدة العذاب، وقوة وصوله إليهم، وشدة إحساسهم به، فـ« شُبه ما حلَّ بهم من العذاب بشيء ذي طعم كريه، يذوقه من حلَّ به ويبتلعه؛ لأن الذوق باللسان أشد من اللمس باليد أو بالجلد، والمعنى: أحسوا العذاب في الدنيا إحساساً مكيناً». [٦]

كما تضمن قوله: ﴿ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا ﴾ سراً بلاغياً آخر، فذكر الطاهر ابن

(١) يُنظر: إرشاد العقل السليم: ٨/ ٢٥٦ .

(٢) يُنظر: الكشاف: ٤/ ٨٦ .

(٣) تفسير التحرير والتنوير: ٢٨/ ١٠٨ .

(٤) يُنظر: إرشاد العقل السليم: ٨/ ٢٥٦ .

(٥) الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين: ٨/ ٢٠ .

(٦) تفسير التحرير والتنوير: ٢٨/ ٢٦٨ .

عاشور، أن في مادة (الذوق) في هذا التركيب استعارة مكنية، ثم بيَّنها بقوله: ((شُبهوا في إقدامهم على حرب المسلمين، مع الجهل بعاقبة تلك الحرب بإبل ترامت على مرعى وبيل، فهلكت، وأثبت الذوق على طريقة المكنية وتخييلها، فكان ذكر " ذاقوا" مع " وبال" إشارة إلى هذه الاستعارة) [1]

كما أن مجيء مادة (الذوق) في هذا المقام؛ إشارة إلى أن ما أصاب الأمم من عذاب في الدنيا، فإنه قليل لما ينتظرهم من العذاب في الآخرة؛ وذلك أن الذوق لا يكون إلا نزراً يسيراً، كما أنه مقدمة لما سيأتي بعده، وأشارت الآيات إلى هذا المعنى، وأومأت إليه، ومن ذلك: قوله: ﴿ فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾، فقد ذاقوا وبال أمرهم في الدنيا، ولهم في الآخرة العذاب الأليم؛ فالعطف يقتضي المغايرة .[2]

بل إن العذاب الوارد في سورة " الطلاق" – كما يذكر الزمخشري- في قوله: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ عَتَتۡ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبۡنَٰهَا حِسَابٗا شَدِيدٗا وَعَذَّبۡنَٰهَا عَذَابٗا نُّكۡرٗا ٨ فَذَاقَتۡ وَبَالَ أَمۡرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمۡرِهَا خُسۡرٗا ٩ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗاۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ قَدۡ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكُمۡ ذِكۡرٗا ١٠ ﴾ أن المراد به:((حساب الآخرة وعذابها، وما يذوقون فيها من الوبال، وما يلقون من الخسر، وجيء به على لفظة الماضي، كقوله: ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٤٤ ﴾ [الأعراف:٤٤] ونحو ذلك؛ لأن المنتظر من وعد الله ووعيده ملقى في الحقيقة، وما هو كائن فكأن قد)). [3]

(١) المصدر السابق: ٢٨/ ١٠٨ .

(٢) يُنظر: التفسير البسيط: ٢١/ ٣٨٩، و: تفسير التحرير والتنوير: ٢٨/ ٢٦٨ .

(٣) الكشاف: ٤/ ١٢٣ .

المقام السابع: في مقام بيان الأحكام الشرعية

وثمة مقام آخر ورد فيه تركيب ﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ﴾، وهو المقام السابع من المقامات الواردة فيها مادة (الذوق)، وذلك في مقام بيان الأحكام الشرعية، وما يترتب عليها من الكفارة، وذلك في قوله – تعالى-: في سورة المائدة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٖ ﴿٩٥﴾﴾.

وهذه بعض الوقفات المتعلقة بدلالة ورود مادة (الذوق) في هذا المقام

الوقفة الأولى: مع " اللام" في قوله: " ليذوق" المفيدة للتعليل، وهي متعلق بقوله: " فجزاء"، والمعنى: أي جُعلتْ تلك الكفارة؛ جزاء عن فعله الصيد؛ ليذوق وبال أمره[1]، ولذا فهي بمعنى: " كي"، أشار إلى هذا المعنى الإمام الطبري، في تفسيره، يقول::« أي: أوجبتُ على قاتل الصيد محرماً ما أوجبت من الجزاء والكفارة الذي ذكرت في هذه الآية؛ كي يذوق وبال أمر ما نهاه الله عنه، ومعنى " أمره" أي ذنبه، وفعله الذي فعله من قتله ما نهاه الله – عزَّ وجل – عن قتله في حال إحرامه». [2]

الوقفة الثانية: أن السورة التي نزلت فيها هذه الآية مدنية، وهي سورة المائدة، ولذا أخذت هذه الآية خصائص الآيات المدنية: الموضوعية،

(١) يُنظر: الكشاف: ١/ ٦٤٥، و: تفسير التحرير والتنوير: ٧/ ٥٠ .

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ٨/ ٧١٢ .

والأسلوبية، فجاءت مادة (الذوق) هنا في مقام الحديث عن الأحكام الشرعية، وما يترتب عليها من كفارات، فاختُصت الآيات المدنية بالحديث عن الأحكام الشرعية، فضلاً عن طول هذه الآية، فقد قامت على الإطناب، تم فيها تفصيل هذه الأحكام وبيانها، ولأن المخاطبين بهذه الآية هم المؤمنون، بدلالة صدر الآية افتُتحت بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ فجاءت ألفاظها، ولهجة خطابها متوافقة مع القوم المخاطبين بها، بخلاف الآيات المكية التي تميزت بخصائص موضوعية، وأسلوبية منبثقة مع خصائص كفار قريش المخاطبين بها.

الوقفة الثالثة: جاءت مادة (الذوق) في هذا المقام، وفي هذا التركيب فعلاً مضارعاً في قوله:" ليذوق"، بخلاف مجيئها في مقام الحديث عن الأمم السابقة، فتكرر تركيب " وبال أمره" في هذه الآية أيضاً، ولكن في الآيات الماضيات الواردة في مقام الحديث عن الأمم السابقة وردت مادة" الذوق" بصيغة المضي: " فذاقت"؛ لكونها تتحدث عن أمم ماضية نالت عقوبتها، وحلَّ بها سوء فعلها، فهي تتحدث عن أمم مضت وانقضت، أما في هذه الآية فجاءت مادة (الذوق) فعلا مضارعاً، وهذا هو المتوافق مع مقام الأحكام الشرعية، والمتوافق – كذلك- مع المخاطبين بهذه الآية، ففي هذه الصياغة إشارة إلى التجدد والحدوث، فيتجدد هذا الذوق؛ لتجدد حدوث هذه المخالفات، ومن هنا ترتبت هذه العقوبة على هذه المخالفة، وهذه المخالفة متجددة؛ لتجدد وقوعها، وتكرر حدوثها، فهذا الحكم الشرعي قائم وباقٍ من حين نزول الآية وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ومن

هنا جاءت صيغة " ليذوق" فعلا مضارعاً دلالة على هذا الأمر، والمعنى: ليتجدد له ذوقه، وليحدث له ذلك مرة بعد أخرى؛ جزاء ما اقترفت يداه.

الوقفة الرابعة: سبق بيان معنى قوله:﴿ وَبَالَ أَمۡرِهِۦ ﴾ في المقام السابق؛ لتعلقها بحال الأمم السابقة، أما هنا فمعناها متعلق بمن يرتكب بعض المحظورات، وهو هتك حرمة الإحرام، بقتل الصيد، ومن ثَم ينال جزاءه وعقوبته، ولذا فالمعنى – وإن كان واحداً، وبينهما اتفاق- إلا أن ثمة اختلافاً قليلاً في المعنى؛ لاختلاف مقام كل واحد منهما، فالوبال – كما سبق بيانه -: الشيء الثقيل، الذي يحصل منه المكروه والضرر، ويتأذى منه بعد أكله؛ لسوء عاقبته، وثقله، ومنه المرعى الوبيل: إذا كان فيه وخامة.(١)

جاء هذا التركيب في مقام الكفارات والعقوبات إشارة إلى« أن إخراج الجزاء ثقيل على النفس؛ لِما فيه من تنقيص المال، وثقل الصوم على النفس، من حيثُ إن فيه إنهاك البدن ». (٢)

و" أمره" في قوله: ﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦ ﴾ لفظة جامعة، لكل ما اقترفه من المحظورات، وما أقدم عليه، كما أن فيها إيهاماً لما أقدم عليه، وتفخيماً له وتهويلاً؛ تعظيماً للإقدام عليها، وأنها من الخطورة بمكان، فأفاد هذا التعميم التهويل والتعظيم.

الوقفة الخامسة: عُبِّر عن عقوبة من أقدم على فعل هذه المحظورات بمادة الذوق، في قوله: ﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦ ﴾، فهل هناك من أسرار ترتبت على هذا

(١) يُنظر: الكشاف: ١/ ٦٤٥، و: فتح القدير: ٢/ ٧٨ .

(٢) الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين: ٢/ ٢٧٦ .

التعبير في هذا المقام؟ والجواب :في هذا التعبير إشارة إلى الشدة والثقل، وإلى سوء المآل، الذي آل إليه بسبب هذه المخالفات، وما ترتب عليها من كفارات، ففيها إشارة إلى« ما يؤثر فيه من غرامة، وإتعاب النفس بالصوم، والوبال: سوء عاقبة ما فعل، وهو هتك حرمة الإحرام بقتل الصيد».[1]

كما أن فيها إشارة إلى المشقة التي لحقته، ونالت بدنه وماله، فكما أن في الوبال ثقلاً، فكذلك الكفارات المترتبة عليها، فقد ذاق عاقبتها، ونالته الشدة والمشقة بسببها[2]، أشار الطاهر ابن عاشور إلى السرِّ البلاغي الكامن في مادة (الذوق) في هذا المقام، يقول:« والذوق مستعار للإحساس بالكدر، شُبه ذلك الإحساس بذوق الطعام الكريه، كأنهم راعوا فيها سرعة اتصال ألمه بالإدراك، ولذلك اشتهر إطلاق الذوق على إدراك الآلام واللذات، وشهرة هذه الاستعارة قاربت الحقيقة».[3]

المقام الثامن: في مقام مخاطبة كفار فريش: وردت مادة (الذوق) في هذا المقام في ثلاثة مواضع من القرآن الكريم.

١ـ الموضع الأول: في سورة النحل، في قوله – تعالى- : ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٩٤ ﴾ .

٢ ـ الموضع الثاني: في سورة النحل، في قوله – تعالى- : ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ

(١) تفسير البحر المحيط: ٤/ ٢٥ .

(٢) يُنظر: فتح القدير: ٢/ ٧٨ .

(٣) تفسير التحرير والتنوير: ٧/ ٥٠

كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ .

٣ ـ الموضع الثالث: في سورة ص، في قوله – تعالى- :﴿ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۖ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴿٨﴾ ﴾ .

وفيما يأتي وقفات مع بلاغة القرآن الكريم في استخدام مادة (الذوق) بتصريفاتها المختلفة في هذا المقام:

الوقفة الأولى: أن جميع هذه الآيات نازلة في العهد المكي، فسورة " النحل"، وسورة " ص" مكيتان[(١)]، وعليه فالمخاطب بها ابتداء هم كفار قريش، فتبين الآيات موقفهم من الرسالة وصاحبها، وتضرب الأمثال، وتخاطب العقول؛ لعلهم يتذكرون، وفيها خصائص الخطاب المكي، ولذا نلحظ فيها ارتفاع النبرة، وشدة الخطاب، وتوافر الأساليب المشتملة على الإنكار والتعجب، والتقرير والتهديد، والإضراب، وغير ذلك من الأساليب التي تلائم ظروف الدعوة وطبيعتها في العهد المكي[(٢)]، انظر على سبيل المثال إلى الأسلوب الوارد في سورة "ص" ﴿ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۖ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴾، تلحظ أن أسلوب الإضراب بـ"بل" ورد مرتين، وهو أسلوب مألوف في المشاهد الحوارية،« يرتبط بجو المواجهات والمجادلات بين الخصوم، حيث يضرب كل طرف عن آراء غيره؛ ليدلي هو بما يراه صحيحاً، أو ليمعن في إثبات رأيه، ولا بد بالطبع أن يكون إضراب

(١) يُنظر: البرهان في علوم القرآن: ١/ ١٩٣ .

(٢) يُنظر: مقدمة في خصائص الخطاب القرآني بين العهدين: ١٢٤ .

صاحب الحق في هذه المواجهات أظهر وأكثر ». [1]

الوقفة الثانية: جاءت مادة (الذوق) في هذه الآيات الثلاث في مقام التحذير والوعيد الشديد لكفار قريش، ففي الآية الأولى من سورة " النحل" في قوله – تعالى -: ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٩٤﴾ ﴾ وردت في مقام النهي عن اتخاذ الأيمان دخلاً، أي خديعة ومكراً بينهم ؛ « لعظم موقعه من الدين، وتردده في معاشرات الناس». [2]

ثم أتبعه – سبحانه – ببيان ضرره وعاقبته في قوله: ﴿ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا ﴾، وهو أسلوب بليغ يقذف بمعاني التحذير من اتخاذ الأيمان دخلاً في بيان عاقبته الوخيمة عليهم، جاء هذا التحذير من خلال أسلوب الاستعارة التمثيلية، ذكر هذه الاستعارة وأبانها: الطاهر ابن عاشور، يقول:« وزلل القوم تمثيل لاختلاف الحال، والتعرض للضرر؛ لأنه يترتب عليه: السقوط، أو الكسر، كما أن ثبوت القوم تمكن الرجل من الأرض، وهو تمثيل لاستقامة الحال، ودوام السير، ولما كان المقصود: تمثيل ما يجره نقض الأيمان من الدخل شُبهتْ حالهم بحال الماشي في طريق بينما كانت قدمه ثابتة إذ هي قد زلت به فصُرع، فالمشبه بها حال رِجْل واحدة». [3]

(١) المصدر السابق: ١٣٧ .

(٢) المحرر الوجيز: ٣/ ٤١٩.

(٣) تفسير التحرير والتنوير: ١٤/ ٢٦٩ .

ثم ذكر – سبحانه – عقاباً آخر في قوله: ﴿ وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ ﴾ وهو موضع الشاهد، وهذا الجزاء مرتبط باتخاذهم الأيمان دخلاً بينهم؛ بدليل قوله: ﴿ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ ﴾ أشار سيد قطب إلى هذا الأمر، يقول:« واتخاذ الأيمان غشاً وخداعاً يزعزع العقيدة في الضمير، ويشوه صورتها في ضمائر الآخرين، فالذي يقسم وهو يعلم أنه خادع في قسمه، لا يمكن أن تثبت له عقيدة، ولا أن تثبت له قدم على صراطها، وهو في الوقت ذاته يشوه صورة العقيدة عند من يقسم لهم ثم ينكث، ويعلمون أن أقسامه كانت للغش والدخل، ومن ثم يصدهم عن سبيل الله بهذا المثل السيئ». (١)

كذلك جاء قوله – تعالى – ﴿ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴾ في آية النحل الأخرى إثر ذكر فعل مشين، وجرم كبير، صدر من كفار قريش، جاءت الإشارة إليه في قوله: ﴿ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ ﴾ بعد ما كانت ﴿ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ ﴾، والقرية التي ضربها الله مثلاً هي: مكة عند عموم المفسرين(٢)، فكانت آمنة مطمئنة، تنعم بالأمن والأمان، ويُتخطف الناس من حولها، آمنة في سربها، لا يُهاج أهلها، ولا يُغار عليها. (٣)

(١) في ظلال القرآن: ٤/ ٢١٩٢ .

(٢) يُنظر: تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٦٤٩، و: التفسير البسيط: ١٣/ ٢١٤، فتح القدير: ٣/ ١٩٩.

(٣) يُنظر: معالم التنزيل: ٣/ ٨٧ .

ومن تمام هذه النعمة: أن كانت دائمة عليهم، ثابتة لهم، لا تحول عنهم ولا تزول، ولذا جاءت الإبانة عنها بالجملة الاسمية؛ دلالة على ثبوت هذه الصفة ودوامها، كانوا في أمن وأمان، وطمأنينة فما روعوها حق رعايتها، وكانوا مع هذا الأمن والأمان في رغد من العيش، ﴿ يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ ﴾ أي: هنيئاً سهلاً، وحالاً ميسوراً، فكان يُحمل إليها ثمرات كل شيء، من البر والبحر.[1]

لكن التعبير هنا جاء مغايراً عن بناء الجملة التي قبلها، فجيء هنا بالجملة الفعلية؛ إشارة إلى تجدد الرزق، وتكرر مجيئه إليهم[2]، وهذا من تمام النعمة، وأدعى إلى ظهورها، مما يوجب شكرها، والمحافظة عليها.

ثم ذكر – سبحانه – موقف كفار مكة من هذا النعيم بقوله: ﴿ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ ﴾ دل حرف العطف " الفاء" في قوله: " فكفرت" على سرعة كفرهم، وجحودهم نعمة ربهم، فسارعوا إلى تكذيب النبي – صلى الله عليه وسلم- ورسالته، وكفرهم بكل ما جاء به ومحاربته، وأشار الطاهر ابن عاشور إلى بلاغة استعمال هذا الحرف ودلالته في هذا الموضع، يقول: «واقتران فعل " كفرت" بـ" فاء" التعقيب بعد ﴿ كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً ﴾ باعتبار حصول الكفر عقب النعم التي كانوا فيها، حين طرأ عليهم الكفر، وذلك عند بعثة الرسول – صلى الله عليه وسلم- إليهم».[3]

(١) يُنظر: تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٦٤٩،: و: معالم التنزيل: ٣/ ٨٧ .

(٢) يُنظر: إرشاد العقل السليم: ٥/ ١٤٥ .

(٣) تفسير التحرير والتنوير: ١٤/ ٣٠٦ .

جاء الإخبار عن النعم التي كفروا بها بجمع القلة، " بأنعم الله" على وزن (أَفْعل)، ولم يقل: (بنعم الله) على زون (فِعَل)، مع كثرة النعم التي أنعم الله بها على أهل مكة؛« للإيذان بأن كفران نعمة قليلة حيث أوجب هذا العذاب، فما ظنك بكفران نعم كثيرة؟!». [١]

وفي الآية الواردة في سورة "ص يذكر فيها - سبحانه- موقفهم من الرسالة ومن صاحبها، ومشهدا من مشاهد ردهم للنبوة، وسخريتهم بالرسول – عليه الصلاة والسلام-، في قوله: ﴿ أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ ﴾، تضمنت الآية سخريتهم من الرسول – عليه الصلاة والسلام-، واستبعادهم أن يكون رسولاً، وأن يُخص بالقرآن وبالرسالة. [٢]

تم بيان هذا المعنى من خلال أسلوب الاستفهام في قوله: ﴿ أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ ﴾، وهو استفهام إنكار وتعجب [٣]، فجاء هذا الإنكار « ترجمة عما كانت تغلي به صدورهم من الحسد، على ما أوتي به من شرف النبوة بينهم». [٤]

ثم أبطل – سبحانه- دعواهم، ورد مزاعمهم، وبيّن الباعث الحقيقي لهذا الحسد، وذلك الإنكار في قوله: ﴿ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِيۖ ﴾، والمراد به: القرآن الكريم، الذي أنزله الله على رسوله، وشكهم فيه يقتضي كفرهم به،

(١) إرشاد العقل السليم: ٥/ ١٤٥ .

(٢) يُنظر: تفسير القرآن العظيم: ٤/ ٣٠

(٣) يُنظر: التفسير البسيط:١٩/ ١٥٧ .

(٤) الكشاف: ١٤/ ٣٦١ .

وإعراضهم عنه[1]، يدل على بطلان دعواهم، وضعف حجتهم: الإضراب في قوله: ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِيٍّ ﴾، وهو إضراب إبطالي تكذيبي[2]، جاء هذا الإضراب في مكانه، وأدى الغرض من ذكره في هذا المقام.

جاء حرف الجر " في " في قوله: " في شك" بدلالته على الظرفية والاستغراق مشيراً إلى هذا المعنى، فدلَّ على انغماسهم بالشك، كما دل – كذلك – عل تمكن هذا الشك فيهم، فأحاط بهم من جميع جوانبهم، إحاطة السوار بالمعصم، فأنى لهم – والحالة هذه - أن يبصروا الحق، ويدركوا الحقائق؟!، وأن يدركوا شرف الرسول – صلى الله عليه وسلم – بينهم، وشرف المنزَّل عليهم، فقد أحاط بهم الشك، فأعمى بصيرتهم وأبصارهم.

الوقفة الثالثة: دلالة مادة (الذوق) وأسرارها البلاغية في هذا المقام:

وبعد أن ذكر – سبحانه – أفعال كفار قريش، وسوء صنيعهم، بيَّن عقابهم، من خلال مادة (الذوق) في قوله:﴿ وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾، فكانت في غاية الإحكام، وفي غاية الجزالة والقوة، فجاءت مادة (الذوق) في هذا المقام فعلاً مضارعاً في قوله: " وتذوقوا"، وفي هذا مزيد من العذاب، والمعنى: أنه عذاب متجدد عليهم، ومستمر بهم، لا يفتر عنهم، وإنما يذوقونه مرة بعد أخرى، يجيء ويذهب؛ ليحسوا مرارته، ويذوقوا ألمه، بخلاف عذاب المتوعدين به في الآخرة في قوله: ﴿ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾، فجاء الحديث عنه بالجملة الاسمية؛ دلالة على ثبات هذا العذاب

(١) يُنظر: البحر المحيط: ٧/ ٣٧٠ .

(٢) يُنظر: تفسير التحرير والتنوير: ٢٣/ ٢١٤ .

واستمراره، فهم في عذاب دائم، لا ينفك عنهم، ولا يحول عنهم ولا يزول.[١]

وفي صيغة " وتذوقوا" استعارة لشدة الإحساس، وقوة الألم، ومما زاد هذا العقاب ألماً وشدة أن المتذوق هو السوء، والمراد به: كل ما يُولم، وحسبك من ألم شديد ذوقه، فكيف ستكون ماهيته وشدته؟!، ومعنى الآية:« ذوق السوء في الدنيا من معاملتهم معاملة الناكثين عن الدين، أو الخائنين عهودهم». [٢]

دلت مادة (الذوق) على شدة العذاب الذي ينتظرهم في الآخرة، وهو أشد وأنكى، وذلك أن الذوق مقدمة الشيء، ويتلوه الكثير والكثير، وجاءت خاتمة الآية مشيرة إلى هذا المعنى في قوله: ﴿ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾؛ وذلك أن العطف يقتضي المغايرة، يدل على هذا المعنى قول الواحدي في تفسير هذه الآية:« ﴿ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ يريد الآخرة، وهو قطع بإيجاب العذاب إن فعلوا ما نُهوا عنه، كأنه قيل:ولكم عذاب عظيم إن اتخذتم إيمانكم دخلاً، ودُلَّ ما تقدم من النهي على هذا المحذوف». [٣]

أكد هذه المغايرة، وهذه الشدة: الشوكاني في قوله: ﴿ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ يقول:« أي مبالغ في العظمة، وهو عذاب الآخرة، إن كان المراد بما قبله

(١) يُنظر: إرشاد العقل السليم: ١١/ ٢٤٦ .

(٢) تفسير التحرير والتنوير: ١٤/ ٢٦٩ .

(٣) التفسير البسيط: ١٣/ ١٨٦ .

عذاب الدنيا». [1]

يدل على عظمة هذا العذاب وشدته: تنكير لفظة "عذاب"، ووصفه بالعظيم، فتضافر التنكير مع الوصف بما توافر في كل واحد منهما في الدلالة على عِظَم هذا العذاب وشدته، فأنى لهم أن يطيقوه، و قد ذاقوا بداياته في الدنيا؟! .

وأما في الآية الأخرى فقد ذكر – سبحانه – عذابهم مستعملاً مادة (الذوق)، فكانت آية في البلاغة والبيان، في قوله: ﴿ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾، ومعناها – كما يذكر الطبري-: أن الله « أذاق أهل هذه القرية لباس الجوع، خلط أذاه أجسامهم، فجعل الله – تعالى ذكره- ذلك مخالطته أجسامهم بمنزلة اللباس لهم؛ وذلك أن الله سلَّط عليهم الجوع سنين متوالية، بدعاء رسول الله – صلى الله عليه وسلم- عليهم». [2]

وقف مع هذه الآية كثير من المفسرين، وكثير من البلاغيين[3]، في بيان دلالاتها البلاغية، ونكتها البيانية، وإمامهم في ذلك الزمخشري، فيكاد يكون أول من فتق أكمامها، وذكر أسرارها، وجلُّ من جاء بعده يكاد يكون عمله النقل، أو الشرح والبسط، ولبديع ما ذكره في بيان هذه الآية ودقته، عقَّب

(١) فتح القدير: ٣/ ١٩١ .

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ١٤/ ٣٨٥ .

(٣) كما سيتضح هذا في الصفحات القادمة من خلال نقول كلام كثير من العلماء عن بلاغة هذه الآية.

عليه ابن المنير بقوله:« وهذا الفصل من كلامه يستحق على علماء البيان أن يكتبوه بذوب التبر لا الحبر» [١].

سأتحدث عن هذه الآية من خلال مادة (الذوق)، مع بيان أثرها في هذا التركيب، من خلال الاستعارة التي تضمنتها في قوله: " فأذاقها"، فهي استعارة تصريحية تبعية؛ إذ إن حقيقة الذوق: إحساس اللسان بأنواع الطعام والشراب، فهي مستعارة« للإحساس بالألم والأذى إحساساً مكيناً، كتمكن ذوق الطعام من فم ذائقه، لا يجد له مدفعاً». [٢]

فهذه هي دلالة مادة (الذوق) وبلاغتها في هذا المقام، ولكن أسرارها البلاغية، ونكتها البيانية لا تقف عند هذا الحد، ولا تنتهي عند هذا البيان؛ وذلك أن الذي يُذاق هنا لباس الجوع والخوف، واللباس لا يُذاق، وهذا من بديع نظم هذه الآية، وعظيم إعجازها، ولذا فقد ارتبطت صيغة " فأذاقها" باستعارة أخرى في هذه الآية بقوله: ﴿ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ ﴾، ففي لفظة: " لباس" استعارة أخرى، تصريحية أصلية، فاستُعيرت للأحداث والمصائب التي حلَّت بأهل هذه القرية؛ لتدل على قوة الإحاطة والشمول، كما يشتمل اللباسُ على صاحبه، ويحيط به من جميع جوانبه، ولكن الذي يُلبس هنا ليس ثوباً، وإنما هو الجوع والخوف، وهذا من بديع

(١) الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال: ٢/ ٤٣١، وقد فعل العلماء ذلك فقد تناقلوه، وحفظوه له، وأقروا بألمعيته، وفضله، وكل من جاء بعده يكاد يكون عالة عليه، فقد تلقوا كلامه، ودانوا له بالفضل والسبق، وزاده بسطة وبياناً.

(٢) تفسير التحرير والتنوير: ١٤/ ٣٠٦ .

نظم الآية، وعظيم إعجازها، ولذا أضافت لفظة " الذوق" هنا معنى بديعاً على هذه الاستعارة، وحدَّدتْ نوعها، فاكتملت بلاغة هذا الاستعارة، وتميزت بلفظة " فأذاقها"، ومن هنا يبرز أثر لفظة " فأذأقها" في هذا الاستعارة، فصارت بسببها استعارة مجردة؛ لكونها« من ملائمات المستعار له، فالإذاقة بمعنى الإصابة، تلائم الأحداث والمصائب، وما علا الوجوه من صفرة، ولا تلائم اللباس ». (١)

إذن فلمادة (الذوق) أثر في هذا السياق، وأثر – كذلك- في تحديد نوع الاستعارة، فبسببها صارت الاستعارة مجردة، فجاءت مادة (الذوق) هنا لتفيد معنى على هذه الاستعارة، ما كانت لتكون لو خلا النظم منها؛ وذلك أن النظر هنا للمستعار له،« وهو هنا أبلغ لدلالته على الإحاطة والذوق، ولو نُظر إلى المستعار لُقال: فكساها، فكان يفوت الذوق». (٢)

ومن هنا تتجلى بلاغة مادة (الذوق) في هذا المقام، وأثرها في الدلالة على إظهار الأثر الذي أصابهم، فصل القول في هذه المسألة الشوكاني، يقول: «إطلاق الذوق على إدراك الجوع والخوف جرى عندهم مجرى الحقيقة، فيقولون: ذاق فلان البؤس والضرر، وأذاقه غيره، فكانت استعارة مجردة، ولو قال: فكساها كانت مرشحة، وقيل: ترشيح الاستعارة وإن كان مستحسناً من جهة المبالغة إلا أن في التجريد ترجيحاً؛ من حيث إنه روعي جانب المستعار له، فازداد الكلام وضوحاً». (٣)

(١) علم البيان: ٢٠٨، د. بسيوني عبدالفتاح فيود.

(٢) نظم الدرر: ١١/ ٢٦٥ .

(٣) فتح القدير: ٣/ ٢٠٠ .

وعن وجه ارتباط هاتين الاستعارتين يقول الطاهر ابن عاشور: ((ولما كان اللباس مستعاراً لإحاطة ما غشيهم من الجوع والخوف، وملازمته أريد إفادة أن ذلك متمكن منهم، ومستقر في إدراكهم استقرار الطعام في البطن، إذ يذاق في اللسان والحلق، ويُحس في الجوف والأمعاء، فاستُعير له فعل الإذاقة؛ تمليحاً وجمعاً بين الطعام واللباس؛ لأن غاية القِرى والإكرام أن يؤدب للضيف، ويخلع عليه خلعة من إزار وبرد، فكانت استعارتان تهكميتان)) . (١)

ويضيف سيد قطب وجهاً آخر من وجوه بلاغة هذه الاستعارة – مؤكداً ما سبق –، يقول:((ويجسم التعبيرُ الجوعَ والخوفَ فيجعله لباساً، ويجعلهم يذوقون هذا اللباس ذوقاً؛ لأن الذوق أعمق أثراً في الحس، فتضاعف مس الجوع والخوف لهم، ولذعه وتأثير، وتغلغله في النفوس؛ لعلهم يشفقون من تلك العاقبة التي تنتظرهم؛ لتأخذهم وهم ظالمون)). (٢)

وعليه فالجمع بين الاستعارتين في لفظة (فأذاقها) ولفظة (لباس) يدل على الأمرين معا: شدة الإصابة التي جسدتها مادة (الذوق)، والإحاطة والشمول، التي حملتها لفظة "لباس"، وقد استحقوا لسوء صنيعهم هذا العذاب المضاعف، فـ ((أذاقهم الله ضد ما كانوا فيه، وألبسهم لباس الجوع، الذي هو ضد الرغد، والخوف الذي هو ضد الأمن؛ وذلك بسبب صنيعهم وكفرهم، وعدم شكرهم، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون)) .(٣)

(١) تفسير التحرير والتنوير: ١٤/ ٣٠٧ .

(٢) في ظلال القرآن: ٤/ ٢١١٩ .

(٣) تيسير الكريم الرحمن: ٣/ ٨٨ .

ومن هنا جاءت الآية بهذه البلاغة، وبهذه الجزالة والقوة؛ إشارة إلى هذا المعنى، ومن بلاغة هذا القول، وعظيم نظمه: أن قال – سبحانه- في الدلالة على هذا المعنى-: ﴿ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ ﴾، دون أن يُقال: (فأذاقها الله طعم الجوع والخوف)، ودون أن يُقال: (فكساها الله لباس الجوع)؛ إذ إن التركيب الأول يفيد شدة الإصابة دون الشمول، كما أن الثاني يفيد الشمول والإحاطة، دون شدة الإصابة، ولكن جاءت الآية بقوله: ﴿ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ ﴾، فأفادت الاستعارة بهذا التركيب الأمرين معا: شدة الإصابة، مع الدلالة على الإحاطة والشمول[1]، فسبحان من هذا كلامه؟! ومن هنا بلغت هذه الآية مبلغ الإعجاز، بأن « جُعلت الثانية متفرعة عن الأولى، ومركبة عليها، بجعل لفظها مفعولاً للفظ الأولى، وحصل بذلك: أن الجوع والخوف محيطان بأهل القرية في سائر أحوالهم، وملازمان لهم، وأنهم بالغان منهم مبلغاً أليماً». [2]

ثم ذكر – سبحانه – أن هذا العذاب الذي حل بهم جزاء ما اقترفته أيديهم في قوله: ﴿ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾، وفي مجيء لفظة " يصنعون" فعلاً مضارعاً إشارة إلى تجدد حدوث هذه الأفعال منهم، وتكرر وقوعها، فقد تكرر منهم كفران النعم، حتى صار لهم ذلك طبعاً وديدناً، ودلت لفظة " يصنعون" على هذا المعنى، أشار إلى هذه الحقيقة أبو السعود، يقول:« وفي صيغة الصنعة؛ إيذان بأن كفران نعمه صار صنعة راسخة لهم، وسنة

(١) يُنظر: علم البيان:٢٠٨، د. بسيوني عبدالفتاح فيود .

(٢) تفسير التحرير والتنوير: ١٤/ ٣٠٧ .

مسلوكة». [١]

وإذا نظرنا إلى الآية في سورة " ص" نلحظ مجيء مادة (الذوق) في معرض تهديد المشركين بالعذاب؛ جزاء موقفهم المتعنت من الرسول – صلى الله عليه وسلم–، ومن الرسالة، وذلك في قوله – تعالى –: ﴿ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ﴾، وهذا الآية – كما يذكر ابن كثير [٢]– تهديد لهم بأنهم سيذوقون هذا العذاب.

ومن دلالات مادة (الذوق) في هذا المقام وبلاغتها: أن ذوق هذا العذاب هو الذي سيقطع تلك الافتراءات، ويوقف تلك السخرية من الرسول – صلى الله عليه وسلم–: فسيتوالى قولهم: ﴿ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ﴾ سخرية واستهزاء، إلى أن يذوقوا العذاب،« فإذا ذاقوه زال عنهم ما بهم من الشك والحسد حينئذ، يعني أنهم لا يصدقون به إلا أن يمسهم العذاب مضطرين إلى تصديقه». [٣]

وفي التعبير عن العذاب الذي سيحل بهم، والإصابة المؤلمة بمادة (الذوق)، إشارة إلى شدة تمكنه منهم، ووصوله إلى أعماقهم وأجوافهم، بل إلى أفكارهم وعقولهم، فيغير عقائدهم، ويبدل آراءهم، فيوقنون حينها أن الرسول – صلى الله عليهم وسلم– حق، ولكن هيهات هيهات أن يفيدهم ذلك شيئاً، أو يخفف عنهم شيئاً من العذاب.

(١) إرشاد العقل السليم: ٥/ ١٤٥ .

(٢) يُنظر: تفسير القرآن العظيم: ٤/ ٣١ .

(٣) الكشاف: ٤/ ٣٦١ .

وفي التعبير – كذلك- إشارة إلى فرط حماقتهم وغبائهم،« فهم لجهالتهم لا يبين لهم النظر، وإنما يبين لهم مباشرة العذاب». (١)

ومن هنا وجهو بلاغة مادة (الذوق) في هذا المقام: أن مجرد ذوق العذاب اليسير القليل غيَّر مواقفهم، وبدَّل أفكارهم، دلالة على شدته وقوته، ما هو إلا ذوق، فكيف بالعذاب الأبدي، الشديد السرمدي وهم خالدون مخلَّدون في هذا العذاب ما دامت السموات والأرض؟!

المقام التاسع: في سياق العذاب في الدنيا: وردت مادة (الذوق) في هذا المقام في ستة مواضع من القرآن الكريم، وهذه المواضع هي:

١ـ في سورة الأنعام، في قوله – تعالى- : ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ .

٢ ـ في سورة السجدة، في قوله – تعالى- : ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

٣ ـ في سورة الزمر، في قوله – تعالى- : ﴿ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾.

٤ ـ في سورة فصلت، في قوله – تعالى- : ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

(١) المحرر الوجيز: ٤/ ٤٩٤.

٥ ـ في سورة القمر، في قوله – تعالى- : ﴿ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ ﴾

٦ـ في سورة القمر، في قوله – تعالى- : ﴿ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ ﴾

وفيما يأتي وقفات مع بلاغة القرآن الكريم في استخدام مادة (الذوق) في هذا المقام:

الوقفة الأولى: أن جميع هذه السور في هذا المقام سور مكية[1]، ومن هنا جاءت هذه الآيات متوافقة مع خصائص آيات العهد المكي: الموضوعية والأسلوبية، ففيها حديث عن الأمم السابقة، وما حلَّ بها من العذاب، لما كذبت رسل ربها، وفي ذلك تذكير لكفار قريش، وتعريض بهم، وبيان أنهم ليسوا بمنأى ولا منجى من هذا العذاب، إن استمروا على ما هم عليه من التكذيب والكفر، كما تجلى في هذه الآيات الخصائص الأسلوبية للآيات المكية، ففيها القوة والجزالة، وفيها الإيجاز، وقوة الخطاب، وقوة الإيقاع، وفي هذه الجو نلحظ أن مادة (الذوق) تلتحم معه وتعضده.

الوقفة الثانية: تنوعت صيغ مادة (الذوق) الواردة في هذا المقام؛ على حسب المعنى المتحدث عنه، والغرض المراد تحقيقه، فجاءت في سورة "الأنعام" فعلاً مضارعاً في قوله: ﴿ وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ لتفيد معنى التجدد والاستمرار، وذلك هو المتوافق مع معنى الآية ومضمونها، فالآية تهديد ووعيد لكفار قريش، والأبلغ في هذا التهديد أن يكون متجدد

(١) يُنظر: البرهان في علوم القرآن: ١/ ١٩٣ .

الحدوث، متكرر الوقوع، يحدث لهم الفينة بعد الأخرى.

وثمة قراءة أخرى لمادة (الذوق) في هذه الآية، فقد قُرئت: " ونذيق" بنون العظمة[1]، تعظيماً له – سبحانه- وبيان قدرته فيما حلَّ بهم، وبيان ما أصابهم، وتكمن بلاغة هذه القراءة أن فيها التفاتاً إلى أسلوب المتكلم؛ إشارة إلى عظمته – سبحانه-، وعظيم قدرته بأن أذاقهم السوء بما كانوا يصنعون. [2]

كما أن في هذا الالتفات تهويلاً لهذا العذاب، ومبالغة في التحذير منه، فهو عذاب جبار السموات والأرض، الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء[3].

جاءت مادة (الذوق) في سورتي: " السجدة"، و" فصلت": فعلاً مضارعاً، وبصيغ مختلفة عما تقدمها، فجاءت في سورة السجدة، بصيغة: " وَلَنُذِيقَنَّهُم "، وفي سورة فصلت بصيغة:" لِنُذِيقَهُمْ "، دلت مادة (الذوق) بهذه الصيغة على التجدد والاستمرار –كذلك-، تم توظيف هذه الدلالة، وهذه الصياغة في بيان شدة العذاب الذي حلَّ بهم؛ كما يتجلى ذلك في سورة "فصلت" فعاقبهم الله بأن أرسل عليهم ريحاً صرصراً في أيام نحسات، وهي الريح شديدة الهبوب، الباردة شديدة البرودة، ولذا فهي تحرق، وتهلك بشدة بردها؛ لأن لها صرصرة، وهو الدَّوي من شدة هبوبها، وسرعة

(١) يُنظر: معجم القراءات القرآنية: ٢/ ٩٦ .

(٢) يُنظر: تفسير البحر المحيط: ٤/ ١٥٦ .

(٣) يُنظر: إرشاد العقل السليم: ٣/ ٣٦٨ .

تنقلها[١]، ولذا فإن هذه الريح التي أُرسلت عليهم كانت« متصفة بجميع ذلك، فإنها كانت ريحاً شديدة قوية؛ لتكون عقوبتهم من جنس ما اغتروا به من قوتهم، وكانت باردة شديدة البرد جداً». [٢]

ولذا فإن في مجيء صيغة " لنذيقهم" فعلاً مضارعاً بدلالته على التجدد والاستمرار، متوافق مع طبيعة هذه الريح، وطبيعة فعلها بهم، كما أنه الأظهر في شدة هذا العذاب، ولذا فهي تهلك وتحرق، كما أنها تنتقل من مكان إلى مكان، وتجمع وتقبض، وكلها أفعال متجددة الحدوث، مستمرة في أثرها وتأثيرها بهم، ومن هنا جاءت مادة (الذوق) في هذا المقام فعلاً مضارعاً دلالة على هذا المعنى، وتحقيقاً لهذه الأغراض.

وفي سورة "السجدة" تم تأكيد هذه الصياغة بنون التوكيد الثقيلة في قوله: " وَلَنُذِيقَنَّهُم "، وفي ذلك مزيد من التأكيد على ما تضمنته هذه الصيغة من معانٍ، وتحقيق لها، إشارة إلى أن دلالة هذه الصيغة متحققة لا محالة، واقعة بهم كما أخبر – سبحانه – بذلك، فقد نفذ حكمه، وحلَّ قضاؤه، ولا راد له – سبحانه–، فإنه أمره بين الكاف والنون.

وأما في سورة "القمر" فجاءت فيها مادة (الذوق) - في كلا الموضعين- بصيغة فعل الأمر "فذوقوا"، وهذه الصيغة هي الأنسب والأبلغ في هذا المقام؛ وذلك أن هذا القول جاء مصاحباً للحظة عذابهم في قوله: ﴿ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾، فتوافق القول مع الفعل، وكذلك قوله – تعالى–:

(١) يُنظر: إرشاد العقل السليم: ٨/ ٩، و: تفسير التحرير والتنوير: ٢٤/ ٢٥٩ .

(٢) تفسير القرآن العظيم: ٤/ ١٠٠ .

﴿ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ ﴾، فتوافق القول مع إهلاك القوم بالطمس، وبالعذاب الذي صبَّحهم، وفي مجيئه بصيغة الأمر "فذوقوا" توبيخ لهم وتقريع لحظة وقوع العذاب عليهم[1]، كما أن فيه تأكيداً لهذا العذاب، وأنه حلَّ بهم ما تُوعدوا به على ألسنة رسلهم[2]، ويتحقق هذا التقريع، ويتجلى هذا التأكيد في أن يُساق لهم، ويقال لهم بصيغة الأمر؛ فذلك أظهر وأبين، ومن هنا جاءت مادة (الذوق) في هذا المقام بصيغة الأمر؛ دلالة على هذا المعنى، وإشارة إليه.

وأما في سورة "الزمر" فجاءت فيها مادة (الذوق) بصيغة فعل الماضي "فأذاقهم" في قوله – تعالى- : ﴿ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْيَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾، إشارة إلى أن هذا العذاب مضى- وانقضى-، فقد حلَّ بهم عذاب ربهم، فهلكوا، فصاروا في الغابرين، تُروى حكايتهم، ويُذكر خبرهم؛ عظة وعبرة للمتأخرين، ففي صيغة المضي في مادة "الذوق"، إشارة إلى أنهم قضوا نحبهم، وهلكوا عن بكرة أبيهم، ولم يبق منهم إلا أثرهم؛ دلالة على أنهم كانوا فبادوا، فهي أمة سادت ثم بادت، ومن ثم جاء الحديث عنهم بالفعل الماضي إشارة إلى هذه المعاني كلها، والله أعلم.

ولذا فإن تنوع صيغ مادة (الذوق) في هذا المقام؛ إشارة إلى تنوع العذاب الذي حلَّ بهم وتعدده، ومن ثم جاء التنوع في الصيغة دلالة على هذا الأمر.

الوقفة الثالثة: جاءت مادة (الذوق)في هذه الآيات في مقام الحديث عن

(١) يُنظر: المحرر الوجيز: ٥/ ٢١٩ .

(٢) يُنظر: تفسير البحر المحيط: ٨/ ١٨٠ .

العذاب الذي حلَّ بالأمم المكذبة في الدنيا على تعددهم، واختلاف العذاب الذي أُهلكوا به، وثمة أسرار بلاغية في مجيء هذه المادة في هذا المقام، ومن هذه الأسرار ما يأتي:

الإشارة إلى قوة العذاب، وإلى كراهية هذا الأمر الذي حلَّ بهم، فقد ذاقوا غصصه، فتجرعوه فلم يستسيغوه؛ وذلك أن الذوق من أقوى الحواس التي يحصل بها الإدراك، وردت مادة (الذوق) في لغة العرب: فيما يُستكره ولا يطاق، ومن ذلك قولهم:« أذقتُ فلاناً العلقم، تريد كراهية شيء صنعته به، ونحو ذلك». (١)

ومن بلاغة القرآن، وبديع نظمه: أن المذاق في آية الأنعام: هو البأس، في قوله: ﴿ وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾، والمراد بالبأس: الموت، والقتل، والشدة بأنواعها(٢)، فيكون المراد بإذاقتها: حصول الألم البالغ في الإيصال، وقوة الإحساس به، وتأثيره بهم، وورد الحديث عن إدراك ألم الموت بمادة (الذوق) كثيراً في القرآن الكريم، وفي لغة العرب، ومن ذلك: قوله تعالى-: في سورة آل عمران ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ﴾، ومنه قول الشاعر:

أذقناهم كؤوس الموت صِرفاً وذاقوا من أسنتنا كؤوسا (٣)

(١) المحرر الوجيز: ٢/ ٣٠٢ .

(٢) يُنظر: تفسير التحرير والتنوير: ٧/ ٢٨٤ .

(٣) يُنظر: تفسير البحر المحيط: ٤/ ١٥٦ .

ومن الأسرار البلاغية في ورود مادة (الذوق) في مقام عذاب المكذبين في الدنيا: أن فيها إشارة إلى قلة هذا العذاب، وأنه نزر قليل، وشيء خفيف لما ينتظرهم في الآخرة، فالذي أصابهم في الدنيا يعد نزراً يسيراً، كما أن الذائق للطعام لا ينال منه شيئاً كثيراً بالنسبة لمن يأكله ويلتهمه، فكذلك عذاب الدنيا بالنسبة إلى عذاب الآخرة، فما هو إلا مقدمة له، وتعريف به، وأشارت الآية التي في سورة " الزمر" إلى هذه الحقيقة، وهي قوله:﴿ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْيَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ وكذلك الآية التي في سورة " فصلت"، وهي قوله: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ فهاتان الآيتان صريحتان في الدلالة على هذا المعنى في قوله:﴿ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ﴾، وفي قوله: ﴿ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ﴾، والمعنى:« أن الذي أعده الله – جل حلاله- لهم في الآخرة من العذاب الشديد أعظم مما أصابهم في الدنيا» (١)، فهو أخزى وأكبر كماً وكيفاً؛ لشدته، واستمراره، ولذا فقوله: ﴿ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ﴾ امتداد للعذاب الذي نالهم في الدنيا؛« وذلك أن انتظار الفرج مما يسلي، قال معلماً أن عذابهم دائم على سبيل الترقي إلى ما هو أشد، وأكده لإنكارهم إياه ﴿ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ الذي انتقلوا إليه بالموت، ويصيرون إليه بالبعث"أَكْبَرُ " من العذاب الذي أهلكم به في الدنيا، فالآية من الاحتباك:« ذكر "الخزي أولاً دليل على إرادته ثانياً، والأكبر ثانياً دليل

(١) تفسير القرآن العظيم: ٤/ ٥٥ .

على الكبير أولاً، وسره: تغليظ الأمر عليهم بالجمع بين الخزي، والعذاب؛ بما فعلوا برسله – عليهم السلام- »[١]، ومن هنا جاءت مادة (الذوق) في هذا المقام؛ للإشارة إلى قلة عذاب الدنيا، بالنسبة إلى ما ينتظرهم من العذاب في الآخرة.

كما تضمنت مادة (الذوق) في هذا المقام تهديداً لهم، ووعيداً لما ينتظرهم لو كانوا يعلمون، ولكنهم لشدة إعراضهم، وعظيم غفلتهم لا يعلمون، وبذلك خُتمت الآية في سورة الزمر في قوله – تعالى-: ﴿ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْيَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾، والمعنى:« أنهم لو كانوا عالمين لعلموا أن عذاب الآخرة أكبر من عذاب الدنيا، فيرتدعوا». [٢]

وثمة سرٌّ آخر مرتبط بما تقدمه، فإذا تقرر أن عذاب الدنيا قليل لما ينتظرهم من العذاب السرمد في الآخرة، وأنه خفيف لما ينتظرهم من العذاب الشديد، والنكال الكبير في الآخرة، ومع ذلك فإن هذا العذاب الخفيف القليل الذي دل عليه استعمال مادة (الذوق) أهلكهم، واستأصل شأفتهم، ففي ذلك تعظيم لهذا العذاب، وتعظيم– كذلك- لمن أوقع بهم العذاب، وهو الله – عزَّ وجلَّ- القادر على إهلاكهم بأقل الأسباب، وبشتى السبل، ولذا جاءت الإشارة إلى هذا المعنى في صدر آية الأنعام في قوله: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ ﴾، جاء الافتتاح بهذا الأمر؛ لبيان قدرته – سبحانه – على إهلاكهم، متى شاء، وبما شاء، وكيف شاء، ومن هنا جاء ذكر هذه الحقيقة من خلال

(١) نظم الدرر: ١٦/ ٤٩٤.

(٢) التفسير البسيط: ١٩/ ٣٩٨ .

أسلوب القصر، بطريق التعريف في طرفي الإسناد[1]، ومع ذلك فليس المراد من هذا القصر:« الإعلام بقدرة الله – تعالى-؛ فإنها معلومة، ولكن المقصود: التهديد، بتذكيرهم بأن القادر من شأنه أن يُخاف بأسه، فالخبر مستعمل في التعريض» [2]، والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

المقام العاشر: في بيان طبيعة الإنسان:

من المقامات التي وردت فيها مادة (الذوق): الحديث عن بيان طبيعة الإنسان، وبيان ما جُبل عليه، ورد ذلك في سبعة مواضع من القرآن الكريم، وهذه المواضع هي:

١ــ في سورة يونس، في قوله – تعالى- : ﴿ وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةً مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ ٢١ ﴾ .

٢ــ في سورة هود، في قوله – تعالى- : ﴿ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ ٩ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ نَعۡمَآءَ بَعۡدَ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٞ فَخُورٌ ١٠ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ١١ ﴾ .

٣ ـ في سورة الروم، في قوله – تعالى- : ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرّٞ دَعَوۡاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنۡهُ رَحۡمَةً إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ٣٣ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ٣٤ ﴾ .

٤ ـ في سورة الروم، في قوله – تعالى- : ﴿ وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ فَرِحُواْ بِهَاۖ

(١) يُنظر: إرشاد العقل السليم: ٣/ ١٤٣ .

(٢) تفسير التحرير والتنوير: ٧/ ٢٨٣ .

وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ .

٥ ـ في سورة فصلت، في قوله – تعالى- : ﴿ لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ ﴾ .

٦ ـ في سورة الشورى، في قوله – تعالى- : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ ﴾ .

وفيما يأتي وقفات مع دلالات مجيء مادة (الذوق) في بيان طبيعة الإنسان في حالتي السراء والضراء.

الوقفة الأولى: هذه الآيات الواردة في بيان طبيعة الإنسان كلها جاءت في سور مكية[1]، ولذا فهي تكشف حقيقة هذا الإنسان في العهد المكي، الذي كفر بربه، وأعرض عنه، ولم يؤمن به، فهو لم يؤمن بكتاب منزَل، ولا برسول مرسل، وتجلي طبيعة هذه النفوس، وما جُبلت عليه، كما أنها تحكي موقف المشركين في حالتي السراء والضراء، وعلى وجه الخصوص كفار قريش، ولذا فإن الآية الواردة في سورة " يونس"، وهي قوله – تعالى-: ﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ نازلة في كفار قريش، وسبب نزولها:« أنه – عليه الصلاة والسلام – دعا على أهل مكة بالجدب، فقحطوا سبع سنين،

(١) يُنظر: البرهان في علوم القرآن: ١/ ١٩٣ .

فأتاه أبو سفيان، فقال: ادع لنا بالخصب، فإن أخصبنا صدقنا، فسأل الله لهم، فسقُوا، ولم يؤمنوا». (١)

ومع ذلك فهذه الآية - وإن كانت تخص كفار قريش، ونزلت فيهم – إلا أن العبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب، ولذا فلفظة "الناس" في الآية« تتناول من العاصين من لا يؤدي شكر الله – تعالى- عند زوال المكروه به، ولا يرتدع بعد ذلك عن معاصيه، وذلك في الناس كثير». (٢)

ومن هنا جاءت هذه الآيات في العهد المكي؛ لأنها تتحدث عن كفار قريش أولاً، كما أنها تتحدث عن طبيعة الإنسان، الذي جحد نعمة ربه، وكفر به، الذي يعرفه في الضراء، وينساه في السراء، الذي يؤمن به إن ركب في الفلك، وفي البحر يعرض عنه، ويكفر به، فالمشركون – كما ذكر الله عنهم في العهد المكي -:﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [العنكبوت:٦٥].

الوقفة الثانية: وردت مادة (الذوق) في الإخبار عن طبيعة الإنسان بصيغة الماضي، في المواضع كلها، وهذه الصيغ، هي: " أدقنا، أذقناه، أذاقهم"، والحكمة في ورود مادة " الذوق" بهذه الصياغة ظاهرة؛ وذلك أنها تتحدث عن الإنسان في حالين: في حال الرخاء، وفي حال الشدة، ولأن هذه الآيات تتحدث عن الإنسان من خلال مواقف سابقة، وهذه هي حاله من قبل ومن بعد، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فجاءت مادة (الذوق)

(١) تفسير البحر المحيط: ٥/ ١٤٠ .

(٢) المحرر الوجيز: ٣/ ١١٢ .

فعلاً ماضياً؛ إشارة إلى تكرر حدوث هذا الأمر منه قبل نزول هذه الآيات، ولذا فهي تحكي واقعه، وتبين طبيعته، كما أن فيها – حين جاءت بالفعل الماضي- شهادة عليه بأن هذا ديدنه الذي صدر عنه، وتخلق به، وفيها ازدراء به، وحطٌّ من شأنه أن كانت هذه طبيعته، وتلك سجيته.

كما أن في مجيء مادة (الذوق) بصيغة الماضي إشارة إلى تحقق صدور هذه الأفعال المشينة من الإنسان، فهي جبلة جُبل عليها، فلتحقق وقوعها، ولشدة كفر الإنسان، وجحوده نعم ربه جاء الإخبار بها بالفعل الماضي، وهذه حقيقة مقررة في الإنسان، فأما من نزلت فيهم هذه الآيات فقد حدث منهم ذلك، وأما المتأخرون من الكافرين فهم على خطا المتقدمين سائرون، وشواهد ذلك في هذا العصر كثيرة، لا تعد ولا تحصى، أشار إلى هذا الأمر أبو حيان الأندلسي، يقول:« تجد الإنسان يعقد عند مس الضر التوبة، والتنصل من سائر المعاصي، فإذا زال عنه رجع إلى أقبح عاداته». [1]

الوقفة الثالثة: من الأمور اللافتة في هذه الآيات أنها تحدثت عن الخير والشر الذي يصيب الإنسان في الحياة الدنيا بأسلوب بليغ، وأدب جم مع الله – سبحانه وتعالى-، فمن يتأمل هذه الآيات يجد أن الخير والرحمة التي تنال الإنسان في آخرته ودنياه جاء كل منهما مسنداً إلى الله – سبحانه وتعالى-، بخلاف الشر والضر والسوء وكل ما يصيب الإنسان مما يحزنه ويغمه فلم يُسند إليه – سبحانه-، تأكيداً ومصداقاً لقوله – عليه الصلاة

(١) تفسير البحر المحيط: ٥/ ١٤٠.

والسلام-: ((والشر ليس إليك))[1]، ومن الدلائل على ذلك في هذه الآيات ما يأتي: في سورة " يونس" يقول – سبحانه-: ﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾، أشار أبو السعود إلى هذا الأمر بقوله:« وإسناد المساس إلى الضراء بعد إسناد الإذاقة إلى ضمير الجلالة من الآداب القرآنية، كما في قوله: ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ [الشعراء:٨٠]»[2].

وممن أشار – كذلك – إلى هذا الأمر: البقاعي عند تفسيره لآية الروم، ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾، حين قال:« مسنداً الرحمة إليه؛ تعظيماً للأدب، وإن كان الكل منه»[3]، ويقول في موضع آخر:« فقال مسنداً إلى نفسه الخير، بعد أن ذكر الشر ولم يسنده إليه؛ تعليماً للأدب، معبراً بمظهر العظمة، تنبيهاً على أن ذلك من جليل التدبير»[4].

وثمة ملحظ آخر في هذه الآيات له علاقة بهذا الأمر، وقريب منه، وهو: أن النعم التي تنالهم من الله: هي محض تفضل منه – سبحانه – وتكرم،

(١) ورد ذلك في جزء من حديث طويل، جاء فيه: " واهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها، لا يصرف عني سيئها إلا أنت، لبيك وسعديك، والخير كله في يديك، والشر ليس إليك". يُنظر: صحيح مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب: ما وري فيمن نام الليل أجمع حتى أصبح، رقم الحديث: ٧٧١ .

(٢) إرشاد العقل السليم: ٤/ ١٣٣ .

(٣) نظم الدرر: ١٥/ ٩٢.

(٤) المصدر السابق: ١٧/ ٢١٧.

بخلاف ما يصيبهم من السوء والشر فبما كسبت أيديهم، ومن الآيات الدالة على هذا الأمر قوله – تعالى- في سورة الروم ﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَاۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾، لحظ بعض المفسرين هذه الحقيقة، وأشاروا إليها، يقول أبو حيان الأندلسي- في تفسير هذه الآية-: « وحين ذكر إذاقة الرحمة لم يذكر سببها، وهو: زيادة الإحسان والتفضل، وحين ذكر إصابة السيئة ذكر سببها، وهو العصيان»[1]، وممن أشار إليها - كذلك-: البقاعي بقوله – عند معنى قوله – تعالى - ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾-:«لم يذكر الله – تعالى – ما يكون سبباً لإذاقة الرحمة، وذكر سبب إصابة السيئة إياهم،؛ لأن الأول تفضل من الله – تعالى- ورحمة محضة، لا يقتضيها شيء من أعمال العبد، بخلاف الثاني فإنه مقتضى العدل، فإنه – تعالى- يجازي المعصية بما يماثلها من العقوبة».[2]

ولعل الحكمة في ذلك أن يعرف هؤلاء الناس فضل ربهم عليهم، وأنه يبادرهم بالفضل، ويسبغ عليهم نعمه، وأن ما يصيبهم من السوء والشر فبما قدمت أيديهم، ويعفو عن كثير، فهذا دافع لهم إلى شكره، والإيمان به، لا الجحود والكفران، فأولى بهم أن يلوموا أنفسهم، ويراجعوا مواقفهم، وينفكوا عن الكفر والإعراض، ويدخلوا في دين الله أفواجاً، ولكن ذلك لم يحصل منهم، ومن هنا جاءت هذه الآيات لتبين طبيعة هذا الإنسان الجاحد

(١) تفسير البحر المحيط: ٧/ ١٦٩.

(٢) حاشية محيي الدين زاد على تفسير البيضاوي: ٤/ ٢٨.

المتغطرس، ولذلك استحق العذاب المعبر عنه في هذه الآيات بمادة (الذوق).

الوقفة الرابعة: المتأمل في هذه الآيات التي تتحدث عن طبيعة الإنسان، وبيان ما جُبل عليه يجد توافر أدوات التوكيد في هذه الآيات على تنوعها، ومن هذا الأدوات:" إنَّ" في قوله – تعالى- في سورة يونس -: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ – بعد أن ذكر حقيقة الإنسان، وطبيعته في حالتي السراء والضراء في قوله: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ﴾، ومن أنواع التوكيد في هذه الآيات: القسم الوارد في سورة هود، في قوله – تعالى-: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ﴾، وكذلك في قوله: ﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ﴾، وكذلك في قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾، وكذلك في سورة فصلت، في قوله: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ﴾، وقوله: ﴿لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى﴾، وقوله: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ﴾، وفي قوله – كذلك-: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾، وكذلك قوله – في سورة الشورى-: ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ﴾، وفي قوله: ﴿فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ۚ﴾، ولا يخفى ما لهذا الأسلوب المشحون بالتوكيد من البلاغة والوكادة، فهو يجعل المعنى المتحدَّث عنه مقرراً ثابتاً في ذهن المخاطب؛ لِما يتضمنه من الإحكام والقوة، أشار إلى هذا المعنى العلوي، يقول – في بيان أسرار التوكيد -:«ولا يخفى موقعه البليغ، ولا علو مكانه الرفيع، وكم من كلام هو عند التحقيق طريد حتى يخالطه صفو التأكيد،

فعند ذاك يصير قلادة في الجيد، وقاعدة في التجويد» [١]، ثم ذكر مفهومه والغرض منه قائلاً :« واعلم أن التأكيد تمكين الشيء في نفسه، تقوية أمره، وفائدته إزالة الشكوك، وإماطة الشبهات عما أنت بصدده، وهو دقيق المأخذ، كثير الفوائد» [٢]،ولذا خلف هذا التأكيد كثير من الأسرار، والنكت البلاغية، التي جاء بها، وضمَّها بين برديه،

انقسم التوكيد في هذه الآيات قسمين: قسم كان الباعث فيه مراعاة حال المخاطب، فيأتي الخبر فيه بناء على حال المخاطب، وهو ما يذكره البلاغيون في بيان أضرب الخبر، الذي يأتي فيه الخبر مطابقاً لحال المخاطب [٣]، ومن شواهد التوكيد لهذا الغرض في هذه الآيات التي تتحدث عن طبيعة الإنسان في السراء والضراء: قوله –تعالى-: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴾ ففي هذا التوكيد إشارة من طرف خفي إلى إنكار كفار قريش ليوم البعث، الذي يتم فيه الجزاء والحساب، فرد عليهم – سبحانه – إنكارهم هذا بقوله: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴾ فجاء هذا التوكيد؛ ليقتلع هذا الاعتقاد الخاطئ، مبيناً أن الملائكة تحصي عليهم أقوالهم، وأفعالهم، وأنهم محاسبون عليها في الآخرة، ولذا فهذه الجملة المؤكَّدة«إعلام بأن ما تظنونه خافياً مطوياً لا يخفى على الله، وهو منتقم منكم» [٤]، أشار الطاهر ابن عاشور إلى

(١) الطراز : ٢٨٧ .

(٢) يُنظر: الطراز : ٢٨٧ .

(٣) يُنظر: الإيضاح: ٢٨.

(٤) الكشاف: ٢/ ٢٣١ .

سرِّ هذا التوكيد وبلاغته، يقول:«وتأكيد الجملة؛ لكون المخاطبين يعتقدون خلاف ذلك، وهو إنذار بالعذاب عليه، وهذا يستلزم علم الله – تعالى- بذلك» .(١)

جاء بناء الجملة متوافقاً مع دلالتها على التهديد والوعيد، فجاءت لفظة "يكتبون" فعلاً مضارعاً؛ دلالة على التجدد والاستمرار؛ وذلك لتجدد هذه الكتابة، وتكرر حدوثها؛ لتكرر أسبابها، وتجدد حدوث المكر الصادر منهم، فهذا دأبهم، وذلك ديدنهم، أشار أبو السعود إلى بلاغة هذه الجملة ودلالتها، يقول:«وصيغة الاستقبال في الفعلين؛ لدلالة على الاستمرار التجددي، والجملة تعليل من جهته – تعالى- لأسرعية مكره – سبحانه-، وفيه من المبالغات ما لا يوصف، وتلوين الخطاب بصرفه عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم- للتشديد في التوبيخ» .(٢)

ومن شواهد التوكيد في هذه الآيات التي جاءت مراعاة لحال المخاطب: قوله – تعالى- في سورة فصلت:﴿ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ ﴿٥٠﴾ ﴾،فجاء التوكيد في قوله: " فَلَنُنَبِّئَنَّ " وفي قوله: " وَلَنُذِيقَنَّهُم " إشارة إلى ما في نفوسهم من إنكار البعث والجزاء، والحساب على أعمالهم، وعلى مواقفهم التي كانت منهم في الدنيا، ومنها: إعراضهم عن ربهم في حالة السراء والرخاء، فجاء التوكيد؛ لتثبيت هذا الأمر، ويبين خطأ معتقدهم، وسوء أفكارهم، وفيه من التهديد مافيه، ومن هنا تم تأكيد هذه

(١) تفسير التحرير والتنوير: ١١/ ١٣٤ .

(٢) إرشاد العقل السليم: ٤/ ١٣٣ .

الأفعال؛ تحقيقاً لثبوتها، وأنها واقعة لا محالة، وهو – سبحانه- يهدد من كان هذا عمله واعتقاده في الدنيا، بأن هذا مصيره، وعقابه في الآخرة. (١)

ومن الإجحاف ببلاغة هذا الأسلوب: أن تُختصر حِكمه، وتُحصر بواعثه في مراعاة حال المخاطب، فهذا وإنْ كان حقاً إلا أنه جزء من الحِكَم والأسرار لأسلوب التوكيد التي يأتي التوكيد من أجلها، دون حصره فيها، أو الاكتفاء بها، ودون النظر في دقائق هذا الأسلوب، والغوص في أسراره، أشار إلى هذه الحقيقة وقررها الأستاذ الدكتور محمد محمد أبو موسى، مبيناً أن أغراض التوكيد أكبر وأكثر من أن تحصر في هذه الدائرة الضيقة، يقول: «وأما دواعي التوكيد وأغراضه فقد ضاق صدري بحديث المتأخرين حينما أداروه حول مواجهة إنكار المخاطب التحقيقي أو الاعتباري، وكأن جواب أبي العباس المبرد على سؤال الكندي المتفلسف كان محيطاً بدواعي التوكيد وأسراره في هذه اللغة فجاء كلامهم ترديداً أو شرحاً لهذا الجواب، وهذا قصور كثير في فهم هذه الخصوصية التي هي من أدق الخصائص البلاغية وأكثرها صلة بالحس والشعور، وأكثرها شيوعاً في الكلام كله» .(٢)

ولذا فجزء كبير من حِكم هذا الأسلوب وبلاغته تنبع من الخبر ذاته؛ إشارة إلى أنه جدير بالاهتمام، ولفت الأنظار إليه، ومن ثم يأتي توكيده إشارة إلى هذا المعنى، ودلالة عليه، ذكر أبو موسى هذه الأغراض، وفصل القول فيها تفصيلاً، فذكر: «أن التأكيد قد يكون لتحقيق المعنى عند المتكلم،

(١) يُنظر: تفسير القرآن العظيم: ٤/ ١٠٩ .

(٢) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري: ٤١٣ .

ومنها: إماطة الشبهة لغرابة الخبر وحاجته إلى التقرير والتحقيق، وقد يكون التوكيد مظهراً لتعلق النفس بالخبر واهتماماً به، وأنه جدير عندها بالقبول والتحقيق، وقد يكون التوكيد لمواجهة تطلعات النفس، وحسم أمالها وأطماعها، وقد يكون لتقرير وعد الله وتثبيته حتى تزداد النفوس اطمئناناً إليه، ووثوقاً به، فلا تلتفت إلى أماني الشيطان ووعده لأوليائه، وقد يتجه المتكلم إلى تصوير ما في نفوس الآخرين من خواطر وأفكار فيأتي تصويره في عبارات مؤكدة ليشير بهذا إلى أن هذه الخواطر والأفكار متقررة في النفوس ومتمكنة منها» .[1]

وهذا هو القسم الثاني من أغراض التوكيد في هذه الآيات، وجلُّ التوكيد في هذه الآيات كان لهذا الغرض، ومن هنا برزت أدوات التوكيد بروزاً ظاهراً في الآيات التي تتحدث عن طبيعة الإنسان، فلم يكن المخاطب شاكاً بها أو متردداً، بَلْهَ أن يكون جاحداً لها، أو منكراً بها، بل جاء التوكيد فيها؛ للنظر لقيمة الموضوع المتحدث عنه، وأنه جدير بالاهتمام والتأكيد؛ إشارة إلى أن طبيعة الإنسان المتقلبة بين الخير والشر، في السراء والضراء، والصحة والمرض، وما يعقبها من الإقبال والإدبار، والكفر والإيمان، والتصديق والتكذيب، دلالة على أن هذا الأمر حقيقة مقررة، وواقع لا يملك عنه فراراً ولا انفكاكاً، ولا يسعه إلا الإقرار به، فهذه هي طبيعته، وذلك هو حاله؟

ولذا فأغلب الأسرار البلاغية للتوكيد في هذه الآيات منظور فيها إلى الخبر

(١) المصدر السابق: ٤١٤ .

نفسه بما تضمنه، بغض النظر عن حال المخاطب، ومن الشواهد على ذلك: قوله – تعالى-: ﴿ إِنَّهُۥ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ﴾ وقوله: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ ﴾، وقوله:﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ﴾، وقوله:﴿ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى ﴾، وقوله:﴿إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾، وقوله: ﴿ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ۚ ﴾، وغيرها، فلم يأت التوكيد في هذه الشواهد بناء على حال المخاطب،كلا، فلم ينظر فيها إلى حالته، وإنما رُوعي في التوكيد: الخبر، وأنه جدير بالاهتمام، ولفت الأنظار إليه، وأن فيه من الغرابة ما يحسن معه توكيده، وذلك أن حالة هذا الإنسان المتقلبة، ومواقفه المتعددة بين الجحود والنكران داعية إلى التعجب من حاله، ولفت الأنظار إليه، من خلال هذا الأسلوب، ومن هنا توافرت أدوات التوكيد في هذه الآيات في حديثها عن طبيعة الإنسان؛ لإبراز هذه الخبر، وإظهاره بهذه الصورة البليغة، وبهذا الخبر المؤكد؛ وذلك لتحقيق هذا الخبر، وتثبيته في نفوس المؤمنين، وإقامة الحجة على الكافرين، فجاء التوكيد بهذه الأدوات، وفي هذا المقام؛ اقتضاء لحق البلاغة، ووفاء بمقامها.

الوقفة الخامسة: بيان الأسرار البلاغية في توافر أسلوب الشرط في هذه الآيات فهي من الأساليب البارزة في هذه الآيات، ولذا فلا بد من الوقوف مع هذا الأسلوب؛ لإبراز بلاغة القرآن الكريم في توظيفه أثناء حديثه عن طبيعة الإنسان، وبيان ما جُبل عليه.

وردت أداتا الشرط:" إذا، وإنْ" في هذه الآيات، ولهما أسرار بلاغية؛ بناء على دلالة كل أداة، والمقامِ الذي وردت فيه؛ وذلك أن أداة الشرط " إذا" تأتي في المقامات المتحقق وقوعها، المجزوم بحدوثها، بخلاف أداة الشرط

"إنْ" فتأتي في المقامات المشكوك فيها، قليلة الحدوث، نادرة الوقوع.(١)

ومن هنا تتجلى بلاغة القرآن الكريم في توظيفه لأدوات الشرط في الحديث عن طبيعة الإنسان، فجاءت أداة الشرط " إذا" في مقام الحديث عن الإنعام على الإنسان، والتفضل عليه بالرحمة، كما في قوله – تعالى – في سورة يونس :﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾، وكذلك في قوله – تعالى – في سورة الروم:﴿ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾، وكذلك في قوله – تعالى – في سورة الروم:﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ ﴿٣٦﴾ ﴾ وكذلك في قوله – تعالى – في سورة الشورى:﴿ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ ﴿٤٨﴾ ﴾، في هذه الآيات التي تحدث عن جانب الخير، ووصول النفع إليه، وتفضله – سبحانه – عليه جاءت أداة الشرط " إذا"؛ دلالة على تحقق وقوعها، والجزم بحدوثها، وأنها واقعة لا محالة.

وأما في مقام الحديث عن إصابته بالضراء، وما يلحقه من الضرر والآلام فيأتي الحديث فيها بأداة الشرط " إنْ"، كما تجلى ذلك في قوله – تعالى– في سورة الروم ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ وكذلك في قوله – تعالى– في سورة الشورى:﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ ﴾ فجاءت المغايرة بين هاتين الأداتين في هذه الآيات؛ إشارة إلى تحقق وصول الرحمة منه – سبحانه – للعباد، ودلالة –

(١) يُنظر: الإيضاح: ٩٦ .

كذلك – على كثرة هذه الرحمة، وشمولها للعباد كلهم، بخلاف المصائب، فهي أقل وجوداً، ولا تصيب الناس جميعاً.[١]

وفي مجيء أداة الشرط " إذا" في الخير؛ إشارة إلى أنها هي الأصل، فهو الأكثر والأسبق، أشار إلى هذا المعنى البقاعي، في قوله: « ولما دلَّ بأداة التحقق على أن النعمة هي الأصل؛ لعموم رحمته، وأنها سبقت غضبه، دل على أن السيئة قليلة بالنسبة إليها بأداة الشك» .[٢]

ومما يؤكد هذا الأمر: أن ثمة بعض المواضع من هذه الآيات التي تتحدث عن طبيعة الإنسان افتُتحت بقوله: "وَلَئِنْ "، وذلك في قوله – تعالى- في سورة هود: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾ وكذلك في قوله –تعالى- في سورة فصلت: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ ﴾، واللام في " وَلَئِنْ " موطئة للقسم[٣]، والمعنى: والله لئن أذقناه، جاء القسم في هذه الآيات؛ إشارة إلى تحقق وقوع هذا الأمر، والجزم بحدوثها، أشار الطاهر ابن عاشور إلى هذا المعنى، يقول: « وتأكيد الجملة باللام الموطئة للقسم؛

(١) يُنظر: نظم الدرر: ١٥/ ٩٥ .

(٢) المصدر السابق: ١٧/ ٣٥٠ .

(٣) يُنظر: فتح القدير: ٢/ ٤٨٥ .

لقصد تحقيق مضمونها، وأنها حقيقة ثابتة، لا مبالغة فيها ولا تغليب» .[1]

ومن بدائع نظم القرآن، وعظيم إعجازه، أن " وَلَئِنْ " جاءت في الآيات التي تتحدث عن مقام الإنعام، والخير والرحمة، مما يؤكد أن الأصل المجزوم بوقوعه:هو إرادة الخير، ووصول السراء بالإنسان دون الضراء، فهو الأصل والأكثر، ومن هنا تلتقي دلالة القسم مع أداة الشرط " إذا" في الإشارة إلى سعته رحمته – سبحانه – بالإنسان، ولطفه به، وحنوه عليه، وأنه مريد به الخير، وأن ما يصيبه من الشر فليس هو الأصل، وليس هو الكثير الأغلب، وإنما ناله ما ناله من السوء بما قدمت يداه، وما يعفو عنه – سبحانه– أكثر وأكبر، فهو أهل الكرم والجود، كما أنه يستر ويعفو ويتجاوز، ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

الوقفة السادسة: بيان بعض الأسرار البلاغية المترتبة على استعمال مادة (الذوق) في مقام بيان طبيعة الإنسان، وما جُبل عليه من التقلب بين النعماء والضراء، ومنها: في استعمالها إشارة إلى معنى الإحساس باللذة، وإدراك الطعم الحسن، ولذا جاءت في جانب النعماء، أشار بعض المفسرين إلى هذا المعنى، ومن ذلك: أبو السعود، يقول: « وفي التعبير عن ملابسة الرحمة والنعماء بالذوق المؤذن بلذتهما، وكونهما مما يرغب فيه»[2]، و أشار إلى هذا المعنى – كذلك – البيضاوي بقوله – في معنى قوله – تعالى-: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ﴾ : « أي أعطيناه نعمة، بحيث يجد لذتها»[3]، وممن ذكر

(١) تفسير التحرير والتنوير: ١٢/ ١٣ .

(٢) إرشاد العقل السليم: ٤/ ١٩٠ .

(٣) تفسير القاضي البيضاوي: ٣/ ٣٦ .

هذا المعنى – أيضاً –: الطاهر ابن عاشور، يقول: « واختيرت مادة الإذاقة؛ لِما تشعر به من إدراك أمر محبوب؛ لأن المرء لا يذوق إلا ما يشتهيه» .[١]

ومن دلالات مادة (الذوق) في هذا المقام: أن فيها إشارة إلى القلة، فالذوق مقدمة الأكل، وهو لا يكون إلا شيئاً يسيراً، وفي هذا إشارة إلى سعة هذه الرحمة وشمولها، وأن القليل منه – سبحانه – كثير؛ وذلك لعظيم أثرها وتأثيرها على الإنسان، وعظيم نفعها عليه في الدنيا والآخرة، أشار كثير من المفسرين إلى هذا المعنى، ومنهم البيضاوي في مثل قوله:« وفي لفظ الإذاقة والمس؛ تنبيه على أن ما يجده الإنسان في لفظ الدنيا من النعم والمحن كالأنموذج لما يجده في الآخرة، وأنه يقع في الكفران والبطر بأدنى شيء؛ لأن الذوق إدراك الطعم» [٢]، كما أشار محيي الدين زادة إلى هذا المعنى بقوله: «اعلم أن نعم الدنيا وإن كانت عظيمة، إلا أنها بالنسبة إلى سعادة الآخرة كالقطرة بالنسبة إلى البحر، فلهذا سُمي الإنعام: إذاقة» [٣]، تضمنت هذه المقولات إشارة من طرف خفي إلى ضيق الدنيا، وسعة الآخرة، وكثرة نعيم الآخرة، وقلة نعيم الدنيا، فأظهرت هذه اللفظة بهذه الدلالة المفارقة التامة، والبون الشاسع بين نعيم الدنيا، ونعيم الآخرة، وحسبك بنعيم الدنيا قلة وزوالا أن عُبر عنه بمادة " الذوق" التي تعني المس بأقل القليل.

كما أن في دلالة مادة (الذوق) على القلة، إشارة إلى جزع الإنسان،

(١) تفسير التحرير والتنوير: ١٢/ ١٣ .

(٢) تفسير القاضي البيضاوي: ٣/ ٣٦ .

(٣) الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين: ٧/ ٧١ .

وضعفه، وإلى سرعة تمرده وطغيانه، أشار إلى هذا المعنى الرازي، يقول: : «لفظ الإذاقة والذوق يفيد أقل ما يوجد به الطعم، فكان المراد أن الإنسان بوجدان أقل القليل من الخيرات العاجلة يقع في التمرد والطغيان، وبإدراك أقل القليل من المحنة والبلية يقع في اليأس والقنوط والكفران، فالدنيا في نفسها قليلة، والحاصل منها للإنسان الواحد قليل، والإذاقة من ذلك المقدار خير قليل، ثم إنه في سرعة الزوال يشبه أحلام النائمين، وخيالات الموسوسين، فهذه الإذاقة من قليل، ومع ذلك فإن الإنسان لا طاقه له بتحملها، و لا صبر له على الإتيان بالطريق الحسن معها» .[1]

ومن دلالات مادة (الذوق) في هذا المقام: معنى العموم لكل ما يُتلذذ به من مطعوم ومشروب، وملبوس، وفي ذلك إشارة إلى سعة كرمه – سبحانه- بأن نوَّع للإنسان رزقه، وأذاقه من النعيم أنواعاً، أشار ابن عطية الأندلسي إلى هذا المعنى، بقوله: « " وأذقناه" هنا استعارة؛ لأن الرحمة تعم جميع ما ينتفع به من مطعوم، وملبوس، وجاه، وغير ذلك»[2]، ويضيف أبو حيان الأندلسي: « والرحمة هنا الغيث بعد القحط، والأمن بعد الخوف، والصحة بعد المرض، والغنى بعد الفقر، وما أشبه ذلك».[3]

وكما أن هذا العموم يظهر كرمه – سبحانه – وتفضله على الإنسان، فهو – أيضاً- يظهر عظيم نكران بني آدم لهذه النعم، وكفره بها، وبمن أسداها،

(١) التفسير الكبير: ٩/ ٤٥٢ .

(٢) المحرر الوجيز: ٣/ ١٥٣ .

(٣) تفسير البحر المحيط: ٥/ ١٤٠ .

وكان الأولى به مقابلتها بالإيمان، والإقبال على مسديها، ولكن هذا بعض ما جُبل عليه، ومن هنا جاءت مادة (الذوق) في هذا المقام؛ لكشف حقيقة الإنسان، وبيان ما جُبل عليه من الجحود والنكران.

ومن دلالات مادة (الذوق) في هذا المقام: الإشارة إلى سرعة تقلب الإنسان بين النعماء والضراء، وتفاوت مواقفه تجاه من أسداها، فهو سريع التقلب، كثير التحول، يقول أبو حيان الأندلسي، تعليقا على قوله – تعالى- في سورة يونس- : ﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾:« وفي هذه الجملة دليل على سرعة تقلب ابن آدم من حالة الخير إلى حالة الشر؛ وذلك بلفظ "أذقنا"، كأنه قيل: أول ذوقة الرحمة قبل أن يداوم استطعامها مكررة بلفظ "من" المشعرة ابتداء الغاية، أي ينشئ المكر إثر كشف الضراء، لا يهمل ذلك» [(١)]، وتبعه الشوكاني بقوله:« وفي التعبير بالذوق ما يدل على أنه يكون منه ذلك عند سلب أدنى نعمة، ينعم الله بها عليه؛ لأن الإذاقة، والذوق أقل ما يوجد به الطعم» [(٢)]، وبه قال ابن عاشور،:« واختير فعل الإذاقة؛ لما يدل عليه من إسراعهم إلى الإشراك عند ابتداء إصابة الرحمة لهم». [(٣)]

ومن دلالات مادة (الذوق) في هذا المقام: تضمنها معنى شدة الإحساس، وقوة الإيصال، ومباشرة الشيء ومخالطته، أشار الواحدي إلى أن التعبير بمادة

(١) المصدر السابق: ٥/ ١٤٠ .

(٢) فتح القدير: ٢/ ٤٨٥ .

(٣) تفسير التحرير والتنوير: ٢١/ ٩٧ .

(الذوق) في الحديث عن جانب الرحمة التي تنال الإنسان، أن المراد بها: شدة إدراك الحاسة، وقوة التمتع بها [1]، كما أن فيها معنى: مخالطة النعماء، وإدراك أثرها وتأثيرها عليهم.[2]

هذه بعض ما دلت عليه مادة (الذوق) في هذا المقام، وقد وُظِّفت هذه الدلالات لبيان طبيعة الإنسان المتغطرس الجاحد لنعمة ربه، الكافر بآلائه.

ومن بلاغة القرآن الكريم في حسن اختياره للألفاظ أن حوت هذه اللفظة هذه المعاني، كما أن فيها مزيداً للمستبصرين والمتأملين، ومما يزيد في بلاغة مادة (الذوق)، وعظيم إيحائها:صياغتها، جاءت مضافة إلى ضمير العظمة، إليه – سبحانه وتعالى- في قوله: " أذقنا"؛ تعظيماً له على نعمه، وعظيم تفضله على بني آدم، وتعظيماً على ما أودع في لفظة " الذوق" من الدلالات المتعددة، والإيحاءات المتنوعة التي تدل على بلاغة هذا القول، وإعجاز نظمه.

الوقفة السابعة: الموازنة بين استعمال مادة (الذوق) في جانب النعماء، وبين مادة (المس) في جانب الضراء:

المتأمل لورود لمادة (الذوق) في هذه الآيات التي تبين طبيعة الإنسان يجد أنها تأتي في الحديث عن جانب النعماء والسراء التي ينعم الله بها على الإنسان، ويتمتع بها، أما في جانب الضراء، والبؤس الذي يصيب الإنسان فتأتي معها مادة (المس)، وذلك متواتر في هذه الآيات كلها، كما في قوله

(١) يُنظر: التفسير البسيط: ١١/ ١٥٤ .

(٢) يُنظر: تفسير التحرير والتنوير: ١١/ ١٣٢ .

تعالى – في سورة يونس ﴿ وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾، وكذلك قوله – تعالى – في سورة هود: ﴿ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ نَعۡمَآءَ بَعۡدَ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٞ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ ﴾،وكذلك قوله – تعالى – في سورة الروم: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرّٞ دَعَوۡاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنۡهُ رَحۡمَةً إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

فجاءت مادة (الذوق) في هذه الآيات كلها مع النعماء، و جاءت مادة (المس) مع الضراء، فما دلالة ذلك في الحديث عن طبيعة الإنسان؟ أما الحديث عن مادة (الذوق) فتقدم بيان معناها، ودلالة ورودها وأسرارها البلاغية في هذا المقام، وأما مادة (المس) فهي استعارة – أيضاً- للإيصال، ومعنى مستهم أي:« خالطتهم حتى أحسوا بسوء أثرها فيهم» [1]، ولذا فـ(المس) مستعمل في مطلق الإصابة مجازاً .[2]

كما أن (المس) أخف ألماً، وأقل خطراً، وحقيقته:« وضع اليد على شيء؛ ليعرف وجوده، أو يُختبر حاله» [3]، ومنه يُعرف سرُّ ورودها في مقام الضراء في بيان طبيعة الإنسان، فجاءت في هذا المقام؛ لتدل على خفة الإصابة التي تصيب الإنسان، ومع ذلك – فلجزعه، وقلة صبره- إذا حلت به هذه المصائب فإنه يدعو الله دعاء شديداً، ويقبل عليه إقبالا كبيراً، وما ناله من

(١) الكشاف: ٢/ ٢٣١ .

(٢) يُنظر: تفسير التحرير والتنوير: ١٢/ ١٤ .

(٣) المصدر السابق: ٢١/ ٩٧ .

السوء إلا نزر يسير، ومن هنا يظهر لطف الله – سبحانه وتعالى – بهذا الإنسان الضعيف، فجاءت مادة (الذوق) في جانب النعماء؛ لأن فيها معنى القوة والتمكن، واللذة بالمطعوم، كما جاء إسنادها إلى الله – عزَّ وجل –؛ تكرماً منه وتلطفاً، ومنّة عظمى على هذا الإنسان، بخلاف لفظة " المس" فجاءت في جانب الضراء التي تصيب الإنسان؛ لخفتها، وقلة أذاها، ولم تُسند إليه – سبحانه –؛ فالشر ليس إليه، بل كانت جزاء ما اقترفته أيديهم؛ جزاء وفاقا.

ومن هنا تتجلى بلاغة القرآن الكريم في توظيف هذه الألفاظ في بيان طبيعة الإنسان، وهذه النفس البشرية، المجبولة على الكفر والعناد، وعلى التقلب والتغيير، وعلى الكفر والنكران، تم توظيف هاتين اللفظتين أبلغ توظيف ظهر معه إعجاز القرآن، فكانت « الضراء بالمس؛ المشعر بكونها في أدنى ما ينطلق عليه اسم الملاقاة من مراتبها، وإسناد الأول إلى الله دون الثاني ما لا يخفى من الجزالة، والدلالة على أن مراده – تعالى – إنما هو إيصال الخير المرغوب فيه على أحسن ما يكون، وأنه إنما يريد بعباده اليسر دون العسر، وإنما ينالهم ذلك بسوء اختيارهم نيلاً يسيراً كأنما يلاصق البشرة من غير تأثير». [1]

وممن أدرك هذا المعنى، وأشار إليه الطاهر ابن عاشور، يقول:« واختيار فعل " المس" بالنسبة إلى إدراك الضراء؛ إيماء إلى أن إصابة الضراء أخف من

(١) إرشاد العقل السليم: ٤/ ١٩٠ .

إصابة النعماء، وأن لطف الله شامل لعباده في كل حال». [1]

المقام الحادي عشر : مقام الحديث عن عذاب الآخرة:

وردت مادة (الذوق) في مقام الحديث عن عذاب أهل النار في الآخرة، وهو أكثر المقامات التي وردت فيها مادة (الذوق) في القرآن الكريم، بلغ عدد هذه المواضع ثلاثة وثلاثين موضعاً، وهذه المواضع هي:

١ـ في سورة آل عمران، في قوله – تعالى-: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ .

٢ـ في سورة آل عمران، في قوله – تعالى-: ﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ﴾ .

٣ـ في سورة النساء، في قوله – تعالى- : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾.

٤ـ في سورة الأنعام، في قوله – تعالى-: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ .

٥ـ في سورة الأعراف، في قوله – تعالى-: ﴿ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ .

٦ـ في سورة الأنفال، في قوله – تعالى-: ﴿ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾ ﴾ .

(١) تفسير التحرير والتنوير: ١٢/ ١٤ .

٧ـ في سورة الأنفال، في قوله – تعالى-: ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ .

٨ـ في سورة الأنفال، في قوله – تعالى-: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ ﴾ .

٩ـ في سورة التوبة، في قوله – تعالى-: ﴿ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ .

١٠ـ في سورة يونس، في قوله – تعالى-: ﴿ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ .

١١ـ في سورة يونس، في قوله – تعالى-: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ .

١٢ـ في سورة الحج، في قوله – تعالى-: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ﴾ .

١٣ـ في سورة الحج، في قوله – تعالى-: ﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ ﴾ .

١٤ـ في سورة الفرقان، في قوله – تعالى-: ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾ .

١٥ـ في سورة العنكبوت، في قوله – تعالى-: ﴿ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ

وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ .

١٦ـ في سورة السجدة، في قوله – تعالى-: ﴿ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾، وقد وردت لفظة " الذوق" في هذه الآية مرتين.

١٧ـ في سورة السجدة، في قوله – تعالى-: ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ .

١٨ـ في سورة سبأ، في قوله – تعالى-: ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٢﴾ ﴾ .

١٩ـ في سورة سبأ، في قوله – تعالى-: ﴿ فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ .

٢٠ـ في سورة فاطر، في قوله – تعالى-: ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ .

٢١ـ في سورة الصافات، في قوله – تعالى-: ﴿ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴾.

٢٢ـ في سورة الصافات، في قوله – تعالى-: ﴿ إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴾.

٢٣ـ في سورة ص، في قوله – تعالى-: ﴿ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴿٥٨﴾ هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴿٥٩﴾ ﴾ .

٢٤ـ في سورة الزمر، في قوله – تعالى-: ﴿ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ .

٢٥ـ في سورة فصلت، في قوله – تعالى-: ﴿ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ .

٢٦ـ في سورة فصلت، في قوله – تعالى-: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ ﴾ .

٢٧ـ في سورة الدخان، في قوله – تعالى-: ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴾.

٢٨ـ في سورة الأحقاف، في قوله – تعالى-: ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ .

٢٩ـ في سورة الذاريات، في قوله – تعالى-: ﴿ ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ .

٣٠ـ في سورة القمر، في قوله – تعالى-: ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ ﴾ .

٣١ـ في سورة النبأ، في قوله – تعالى-: ﴿ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ ﴾ .

٣٢ـ في سورة النبأ، في قوله – تعالى-: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ ﴾ .

وفيما يأتي وقفات مع بلاغة القرآن الكريم في استخدام مادة (الذوق) في هذا المقام:

الوقفة الأولى: أن ورود مادة (الذوق) بهذه الكثرة، في هذا المقام، حكمة

بالغة ظاهرة، تتمثل في أن الخطاب الوارد في مادة (الذوق) في هذا المقام موجهه للمشركين، يُقال لهم ذلك وهم في جهنم، فالآخرة دار جزاء وحساب، وقد حان حسابهم، ووقع عقابهم، في الآخرة، وهم في النار، وما أصابهم في الدنيا من المصائب فهو كالعدم بالنسبة لعذاب الآخرة، بل إن غمسة واحدة في النار تنسيهم نعميم الدنيا كله كما ورد ذلك في الحديث الصحيح. (١)

وردت الإشارة إلى هذا المعنى في آيات كثيرة، ومنها الآيات التي وردت فيها مادة (الذوق)، ومن ذلك قوله – تعالى- في سورة السجدة: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾، وكذلك في قوله – تعالى- في سورة فصلت: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾، وكذلك في قوله – تعالى- في سورة الزمر: ﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾، وغيرها من الآيات.

الوقفة الثانية: وردت مادة (الذوق) في هذا المقام في عدد من سور القرآن، في اثنتين وعشرين سورة، آل عمران، النساء، الأنعام، الأنفال، التوبة، الصافات، النبأ، ص، الدخان، الأعراف، يونس، الحج، العنكبوت، السجدة، سبأ، فاطر، الزمر، الأحقاف، الذاريات، القمر، الفرقان، فصلت، وجلها مكية، وأربعة منها فقط مدنية، وهي: سورة (آل عمران، والنساء،

(١) يُنظر: صحيح سنن ابن ماجة: باب صفة النار، رقم الحديث: ٣٤٨٨ .

والأنفال، والتوبة) [1]، وهذا يدل على أن القرآن الكريم في العهد المكي كان يخاطب كفار قريش، وهو منكرون للبعث كل الإنكار، جاحدون له، وكفروا بالحساب والجزاء، ومن ثَم جاءت هذه الآيات تذكرهم وتتوعدهم بالبعث والحساب، وأنهم مبعوثون ومحاسبون على أقوالهم وأفعالهم، وأنهم داخلون النار، ومعذبون فيها، ولن يجدوا مناصاً ولا مهربا من ذوق هذا العذاب، وهذا منسجم تماماً مع أحد أهم مقاصد القرآن المكي، وهو التهديد والوعيد والإنذار للكفار، ولهذا السبب كثر ورود مادة (الذوق) في هذا المقام، في العهد المكي، بل يكاد يكون هذا الأمر سمة بارزة، وخاصية من الخصائص الموضوعية للآيات في العهد المكي.

الوقفة الثالثة: عند النظر في مادة (الذوق) الواردة في هذا المقام نجد أن الأغلب أنها جاءت بصيغة فعل الأمر، " فذوقوا"، مع ضمير الجمع، ولم ترد مخاطباً بها المفرد إلا في موضع واحد، في قوله – تعالى- في سورة الدخان ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴾، وثمة أسرار بلاغية في مجيء مادة (الذوق) بصيغة الأمر في هذا المقام، ومنها: أن مادة (الذوق) مخاطب بها المشركون، وهم في النار، ففيها دلالة على المواجهة، والأمر لهم بمباشرة ذوق العذاب، فالملائكة من خزنة جهنم يسومون هؤلاء المشركين سوء العذاب، ولذا فهم يتوجهون إليهم مباشرة بالخطاب، ويأمرونهم أمراً بذوق عذاب النار، وقد تضمن هذا الأمر معنى بلاغياً، التبكيت والتقريع والتهكم بهم في هذا الموضع، والتوبيخ لهم على الحال الذي آلوا إليه، وعلى

(١) يُنظر البرهان في علوم القرآن: ١/ ١٩٣ .

سوء أعمالهم التي كانوا عليها في الدنيا، أشار ابن كثير إلى هذا المعنى، يقول: « أي يُقال لأهل النار على سبيل التقريع والتوبيخ: ذوقوا هذا العذاب؛ بسبب تكذيبكم به، واستبعادكم وقوعه، وتناسيكم له، إذ عاملتموه معاملة من هو ناسٍ له ».[١]

كما أن في هذا القول تهديداً لهم ووعيداً بأنهم سيذوقون في النار عذاباً شديداً، لا طاقة لهم به، ولا صبر لهم عليه، أشار إلى هذا المعنى الواحدي، بقوله في تفسير قوله – تعالى في سورة الأنفال-: ﴿ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾ ﴾: « ومعنى الآية: وعيد للكافرين بعذاب بالنار، بعد مانزل بهم من ضرب الأعناق، وكل بنان »[٢]، وذكر الشوكاني، فبيَّن أن في هذا القول:« تهديداً لهم، ومبالغة في إدخال الروعة في قلوبهم ».[٣]

كما أن الأمر للكفار بذوق العذاب وهم في النار إهانة لهم، واحتقار بهم، وازدراء بحالهم، إشارة إلى أنهم يهانون بالعذاب قولاً وفعلاً[٤]، ويؤكد الطاهر ابن عاشور، على هذا المعنى بقوله:(فذوقوه): « للشماتة على تحقيق الوعيد، فصيغة الأمر مستعملة في الشماتة والإهانة ».[٥]

ومما يقوي معنى التهكم في استعمال مادة (الذوق) في سياق الحديث عن

(١) تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٥٠٥ .

(٢) التفسير البسيط: ١٠/ ٦٠ .

(٣) فتح القدير: ٢/ ٣٦ .

(٤) يُنظر: تفسير القرآن العظيم : ٣/ ٢٣٥ .

(٥) تفسير التحرير والتنوير: ٩/ ٢٨٥ .

عذاب الكافرين: ما ورد في قوله – تعالى- في سورة الدخان ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴾ حيث يستشهد بها البلاغيون على الاستعارة التهكمية[1]، والمعنى: إنك لست بعزيز ولا كريم[2]، على الحقيقة؛ إذ لا عزة إلا بالعبودية له، وأثبت له العزة والكرامة « على سبيل الهزؤ والتهكم بمن كان يتعزز، ويتكرم على قومه ». [3]

ويضيف البقاعي معنى لطيفاً في استعمال مادة (الذوق) بقوله:« ولما علم بهذه الآية أنه لا يملك من أمر نفسه شيئاً، بل وصل إلى غاية الهوان، دُل عليه بالتهكم بما كان يظن في نفسه من العظمة التي كان يترفع بها في الدنيا على أوامر الله، فقيل له: ذق»[4]، ولذا فالأمر في قوله: (ذق) « مستعمل في التهكم بعلاقة الضدية، والمقصود عكس مدلوله، أي أنت الذليل المهان، والتأكيد للمعنى التهكمي ». [5]

إذن فقد دل استعمال مادة (الذوق) بصيغة الأمر على الإهانة لهم بالقول والفعل، فاجتمع عليهم العذاب الحسي، والمعنوي؛ يقول ابن كثير:« ومعنى الكلام أنهم يُهانون بالعذاب قولاً وفعلاً»[6]، وقد أشار إلى هذا المعنى أبو حيان الأندلسي، بقوله:« ولما كان الصادر منهم قولاً وفعلاً ناسب أن يكون

(١) يُنظر: علم البيان: ٢٠٥، للدكتور بسيوني عبدالفتاح فيود.

(٢) يُنظر: تفسير القرآن العظيم: ٤/ ١٥٤ .

(٣) الكشاف: ٣/ ٥٠٧ .

(٤) نظم الدرر: ١٨/ ٤٦ .

(٥) تفسير التحرير والتنوير: ٢٥/ ٣١٦ .

(٦) تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٢٣٥ .

الجزاء قولاً وفعلاً...، وفي الجمع بين القول والفعل أعظم انتقام، ويقال للمنتقم منه: حس وذق ». [١]

بالإضافة إلى أن في صيغة الأمر (فذوقوه) إشارة إلى دوام هذا العذاب، وعدم انقطاعه، ولذا فهم في هذا العذاب خالدون مخلدون، ما دامت السموات والأرض، لا يفتر عنهم العذاب، وهم فيه مبلسون، أشار الزمخشري إلى هذا المعنى، بقوله: ((أي ليدوم له ذوقه، ولا ينقطع،كقولك للعزيز: أعزك الله، أي أدامك على عزك، وزادك فيه))[٢]، وكذلك أهل النار في النار ففي الأمر إذن دلالة على دوم العذاب، وعدم انقطاعه، وخلوصهم منه.

الوقفة الرابعة: من يتأمل التراكيب التي وردت فيها مادة (الذوق) في هذا المقام يجد أنها مصحوبة بالحذف كثيراً،ولا تخفى أهمية هذا الأسلوب وجزالته، كما أن له مقاماته التي يأتي فيها، والأسرار البلاغية التي ينطوي عليها، ومجيء الحذف في هذا المقام متوافق مع شدة الوعيد والتهديد، كما أن فيه دلالة على شدة المقت، ودلالة – كذلك- على شدة العذاب، وفي ذلك توافق مع دلالة مادة (الذوق) في هذا المقام في الدلالة على شدة العذاب، وقوته واستمراره.

والحذف في مقامات التهديد والوعيد له شأنه البلاغي الذي لا يخفى، يقول الواحدي – في تفسير قوله – تعالى- في سورة الأنفال-: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾

(١) تفسير البحر المحيط: ٣/ ١٣٦ .

(٢) الكشاف: ٢/ ٧٣ .

« فيه إضمار، أي ويقولون: ذوقوا عذاب الحريق، وإنما الحذف لدلالة الكلام عليه من جهة أن عقابهم يقتضي أن يُقال لهم ما يسؤوهم، وحذف القول في القرآن الكريم كثير ». (١)

ومن شواهد حذف مفعول فعل (الذوق) في هذا المقام: قول الله – تعالى- في سورة فاطر: ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ ﴾، حُذف فيه مفعول (الذوق)؛ لدلالة المقام عليه، وهو العذاب، أي ذوقوا ما أنتم فيه من أنواع العذاب في النار. (٢)

ومن بلاغة هذا الحذف: إرادة العموم؛ ليذوقوا العذاب كله، بكل أصنافه وأنواعه، وذلك أدخل في باب الوعيد والتهديد، ولو ذُكر نوع العذاب لتقيد في المذكور؛ وفي ذلك تقليل له وحصر، بيد أن الأنسب في مقام الحديث عن العذاب تهديداً ووعيدا أن يأتي مشتملاً على هذا الحذف؛ ليكون أبلغ وأقسى.

ومن أنواع الحذف المصاحب لاستعمال مادة (الذوق) :حذف فاعل القول في هذه الآيات، حيث لم يُذكر الآمر، أهو الله – سبحانه وتعالى-؟ أم الملائكة؟ أم خزنة جهنم؟ وفي ذلك إهانة بالغة لهم وإذلال، فكل يأمرهم، وكل يتهددهم، وكل يتوعدهم من كل جانب، أشار البقاعي إلى هذا المعنى، بقوله« أي مقولاً لهم من أي قائل اتفق " ذوقوا"؛ لأنهم لا منعة لهم، ولا

(١) التفسير البسيط: ١٠/ ١٩٧ .

(٢) يُنظر: تفسير التحرير والتنوير: ٢٢/ ٣٢٠ .

حمية عندهم بوجه ». [١]

الوقفة الخامسة: لمادة (الذوق) الواردة في هذا المقام أسرار بلاغية، ونكت بيانية مراد تحقيقها، تم توظيفها في بيان هذا العذاب وشدته، وما كانت هذه الأسرار لتكون لو خلا المقام من هذه المادة ومن دلالاتها ما يأتي:

أن فيها إشارة إلى شدة العذاب، وقوته، واستمراره، وهذا من بلاغة القرآن الكريم، وعظيم إعجازه: استعماله لمادة (الذوق) الدالة على القلة، ومقدمة الشيء في الدلالة على شدة العذاب وتنوعه، والتمكن منه، والاستمرار فيه، أشار الواحدي إلى هذا المعنى، يقول:« استُعمل لفظ (الذوق) هنا مع عظيم ما نالوا من شدة العذاب؛ إخباراً بأن إحساسهم به، وفي كل حال كإحساس الذائق في تجديد الوجدان من غير نقصان في الإحساس، كما يكون في الذي يستمر به الأكل فلا يجد الطعم» [٢]

يدل على أن المراد بذوق العذاب: شدة الإحساس، وشدة الألم: قول الطاهر ابن عاشور:« والذوق حاسة يحصل معها إدراك الطعم، وهو هنا توسع، والمراد به: إدراك الألم » [٣]، ولأن اللسان أكثر الأعضاء وأقواها إحساساً بالمطعوم جاءت مادة (الذوق) في هذا المقام؛ إشارة إلى شدة إحساس الكفار بالعذاب، ووصوله إليهم، وتمكنه منهم، وتمكنهم منه، وذلك؛« أن إحساس الذوق باللسان أشد من إحساس ظاهر الجلد، فوجه

(١) نظم الدرر: ١٩/ ١٣٢ .

(٢) التفسير البسيط: ٦/ ٥٣٣ .

(٣) تفسير التحرير والتنوير: ٣/ ٤٤٤ .

الشبه: قوة الحس، والمذوق هو العذاب، فهو جزاء ما اكتسبوه في الدنيا من الشرك وشرائعه، فجعل الذوق نفس ما كانوا يكسبونه؛ مبالغة مشيرة إلى أن الجزاء وفق أعمالهم، وأن الله عادل في تعذيبهم ». (١)

ومن خلال ما تبين من هذه الدلالات يُعلم أن دلالة مادة (الذوق) ليست ثابتة، بل تتغير على حسب تغير المقامات، فإذا كان " الذوق" يدل على القلة؛ لكون الذائق لا يتذوق إلا شيئا يسيراً، ونزرا قليلاً؛ إذ لو كثر لصار طعاماً، وليس ذوقاً، فهذه الدلالة ليست ثابتة في كل مقام، وإنما هي في عذاب الدنيا؛ إشارة إلى ما ينتظرهم من العذاب في الآخرة، يدل على هذا: قول أبي حيان الأندلسي، يقول:« ولما كان عذاب الدنيا بالنسبة إلى عذاب الآخرة يسيراً سُمي ما أصابهم منه ذوقاً؛ لأن الذوق يعرف به الطعم، وهو يسير؛ ليعرف به حال الطعم الكثير، فما حصل لهم من العذاب في الدنيا كالذوق القليل بالنسبة إلى ما أعد الله لهم في الآخرة من العذاب العظيم». (٢)

بيد أن هذه الدلالة تتلاشى في الآخرة؛ إذ ليس المراد منها: القلة، بل شدة العذاب، وقوة الإحساس به، أشار إلى هذا المعنى الرازي بقوله:« وإنما يقال: فلان ذاق العذاب؛ إذا أدرك شيئاً قليلا منه، والله – تعالى- وصف أنهم كانوا في أشد العذاب، فكيف يحسن بعد ذلك أنهم ذاقوا العذاب؟!، والجواب: المقصود من ذكر الذوق: الإخبار بأن إحساسهم بذلك العذاب في كل حال يكون كإحساس الذائق للمذوق؛ من حيث إنه لا يدخل منه

(١) تفسير التحرير والتنوير: ٢٣/ ٣٩٤ .

(٢) تفسير البحر المحيط: ٤/ ٤٤٦ .

نقصان وزوال، بسبب ذلك الاحتراق »[١]، وذكره -كذلك-: أبو السعود، يقول:« والتعبير عن إدراك العذاب بالذوق؛ ليس لبيان قلته؛ بل لبيان إن إحساسهم بالعذاب في كل مرة كإحساس الذائق بالمذوق من حيث إنه لا يدخله نقصان؛ لدوام الملابسة، أو للإشعار بمرارة العذاب، مع إيلامه، أو للتنبيه على شدة تأثيره من حيث إن القوة الذائقة أشد الحواس تأثيراً، أو على سرايته للباطن ».[٢]

ومن دلالات مادة (الذوق) في مقام عذاب الكفار في الآخرة: أن فيها إشارة إلى وصول العذاب؛ دلالة على شدة النار التي يُعذَّبون فيها، يقول الواحدي،: ((وقيل: " ذوقوا" لوصول الألم إلى المعذَّب، كوصول الذوق إلى الذائق))[٣]، إذن ففيه إشارة إلى الإحساس بالشيء، : ((وقد شاع في كلام العرب: إطلاق الذوق على الإحساس بالخير، أو بالشر، وورد في القرآن كثير))[٤]، كما هو في آيات مادة (الذوق) في مقام العذاب في الآخرة؛ لكون اللسان أكثر الأعضاء إحساساً، ولذا كان هو أداة الذوق.

ولذا فإن المراد بذوق أهل النار للعذاب:« أنهم يجدون حقيقة العذاب، وجوهر العذاب، ويعالجون ألمه، وأوجاعه، ويجدون كل ذلك كما يجد ذائق الطعام جوهر الطعام وحقيقته وطعمه ونكهته، والتذوق في كل شيء نهاية العلم به، ونهاية معرفته بدقيقه وجليله ».[٥]

---

(١) التفسير الكبير: ١٠/ ١٣٥ .

(٢) إرشاد العقل السليم: ٢/ ١٩٢ .

(٣) التفسير البسيط: ١٧/ ٥٤٦ .

(٤) تفسير التحرير والتنوير: ٤/ ١٨٥ .

(٥) آل حم: غافر وفصلت: دراسة في أسرار البيان: ٤٠١ .

الوقفة السادسة: ورود مادة (الذوق) افي هذا المقام وهذه دلالتها، وبهذه الكثرة، ومن خلال هذا الأسلوب البليغ، القوي الجزل دلالة على شدة مقته – سبحانه وتعالى– على هؤلاء الكافرين؛ وذلك أن هذه المادة – كما يذكر الدكتور محمد محمد أبو موسى–: ((بُنيت على غضب شديد، تجد هذا الغضب الشديد في كلماتها، وفي موقعها))[1]، تم التعبير عن ذلك المقت من خلال هذه المادة بما تضمنته من دلالات، ومن خلال هذا النظم القرآني الفريد.

وثمة كثير من الإشارات الدالة على شدة مقته – سبحانه–، وعظيم غضبه عليهم، ومن ذلك:

أن أشد آية نزلت على الكافرين من حيث: جرسها، ومعناها، تم ذكرها وبيانها من خلال مادة (الذوق) الواردة في مقام عذاب الكافرين في النار، وذلك في قوله – تعالى– في سورة النبأ ﴿ فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾، « يدل على ذلك قول عبدالله بن عمر، يقول: ((لم ينزل على أهل النار أشد من هذه الآية: ﴿ فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ ﴾، قال: فهم في مزيد من العذاب أبداً)) ». [2]

وحتى يتبين المراد من هذه الآيات؛ ليتضح منه شدة المقت المعبَّر عنه بمادة (الذوق) في هذا المقام أذكر الآيات التي تضمنتها، والسياق الذي جاءت فيه، وهو قوله – تعالى – ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ ﴾، ذكـــــــر

(١) المصدر السابق: ٤٠٠ .

(٢) تفسير القرآن العظيم: ٤/ ٤٩١ .

سبحانه- غفلتهم في الدنيا عن الدار الآخرة، بل تكذيبهم به، « فلم يكونوا يعتقدون أن ثم داراً يُجازون فيها ويحاسبون، كما كانوا يكذبون بحجج الله ودلائله على خلقه التي أنزلها على رسله، فيقابلونها بالتكذيب والمعاندة ».[١]

وفي تأكيد الخبر بـ" إن" في قوله: " إنهم" إشارة إلى الجزم في بيان الحالة التي كانوا عليها في الدنيا، وهو – سبحانه- أصدق القائلين، بيد أن مجيء الآية بهذا التأكيد؛ إدانة لهم بذلك الفعل المشين، فقد كان هذا حالهم، وذلك ديدنهم، ولا مناص لهم للجحود والنكران، أشار الطاهر ابن عاشور إلى بلاغة هذا التأكيد، يقول:« وحرف " إن"؛ للاهتمام بالخبر، وليس لرد الإنكار؛ إذ لا ينكر أحد أنهم لا يرجون حساباً، وأنهم مكذبون بالقرآن»[٢]، ولذا فقد تضمن قوله – تعالى-:﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴾ تعليلاً لاستحقاقهم هذا العذاب. [٣]

وفي مجيء لفظة " يرجون" فعلاً مضارعاً مزيد إنكار عليهم وتشنيع، كما أن فيها دلالة على سوء موقفهم وقبحه؛ وذلك أنها تفيد التجدد والاستمرار، فقد تجدد كفرهم باليوم الآخر، واستمر حدوثه؛ إشارة لسوء طويتهم، وخبث قلوبهم، فهم « كلما أوعيد لهم ذكر يوم الحساب جددوا إنكاره، وكرروا شبهاتهم على نفي إمكانه؛ لأنهم قالوا: إن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين ». [٤]

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٤/ ٤٩١ .

(٢) تفسير التحرير والتنوير: ٣٠/ ٣٩ .

(٣) يُنظر: إرشاد العقل السليم: ٩/ ٩١ .

(٤) تفسير التحرير والتنوير: ٣٠/ ٤٠ .

وبعد أن ذكر – سبحانه- حالهم في الدنيا، وسوء فعلهم وقبحها ذكر عقابهم في الآخرة في قوله: ﴿ فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾، أي فيقال لهم، وقد حُذف القائل في هذا المقام؛ إشارة إلى شدة مقته –سبحانه – عليهم، فهم أقل شأناً من أن يُسند هذا العذاب إليه – سبحانه- في هذا المقام، كما أن في ذلك تعجيلاً لهذا العذاب، وتعجيلاً لهم بما يسؤوهم، وتعجيلاً لهم بالهوان والصغار، وكأن المراد في هذا السياق: أن يذوقوا هذا العذاب، دون الالتفات إلى مَنْ يعذبهم.

جاءت الآية بأسلوب الالتفات من الغيبة إلى الخطاب، ففيه مزيد من التهديد بأن توجه بالخطاب إليهم مهدداً ومتوعداً، فإن الوعيد بالعذاب، والمخاطبة به عذاب فوق عذاب، ففيه مزيد من التهويل، والتشديد عليهم، ولذا فمجيء الالتفات بهذا المقام، وبهذا الطريق دليل – كما يذكر الزمخشري-: على أن الغضب قد تبالغ، وبلغ منتهاه [1]، فيُقال لهم هذا القول عند مباشرة العذاب، وإدراك الألم، وهو من العذاب المعنوي الذي يُعذَّبون به، الذي يضاعف آلامهم، ويزيد مصابهم .[2]

ومن بلاغة هذا الالتفات: أنه تضمن أمراً لهم بذوق العذاب في الحال، وفي المآل، أما الحال فقد دل عليه بقوله: " فذوقوا"، وأما في الاستقبال فجاءت الإشارة إليه بقوله– تعالى -: ﴿ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾ فـ« أكد ذوقهم في الاستقبال، فقال ﴿ فَلَن نَّزِيدَكُمْ ﴾ أي شيئاً من الأشياء، في وقت من الأوقات ﴿إِلَّا عَذَابًا ﴾، فإن داركم ليس بها إلا الجحيم، كما أن الجنة

(١) يُنظر: الكشاف: ٤/ ٢١٠ .

(٢) يُنظر: تفسير الجلالين: ٧٨١ . .

ليس بها إلا النعيم، فآفهم هذا أن حصول شيء لهم غير العذاب محال ». [١]

ولذا فهذا التركيب من تأكيد الشيء بما يشبه ضده، أشار الطاهر ابن عاشور إلى هذا الأسلوب وبلاغته، يقول:« وهو أسلوب ظريف من التأكيد، إذ ليس فيه إعادة لفظ، فإن زيادة العذاب تأكيد للعذاب الحاصل، ولما كان المقصود: الوعيد بزيادة العذاب في المستقبل جيء في أسلوب نفيه بحرف نفي المستقبل، وهو " لن"، فيكون معنى جملة الاستثناء: سنزيدكم عذاباً أبداً، وهو معنى الخلد في العذاب، وهو في هذا الأسلوب ابتداء مطمع بانتهاء مؤيس، وذلك أشد حزناً وغما بما يوهمهم أن ما لقوا فيه هو منتهى العذاب؛ حتى إذا ولج ذلك أسماعهم فحزنوا له، أتبع بأنهم ينتظرهم عذاب آخر أشد فكان ذلك حزناً فوق حزن، فهذا هو منوال هذا النظم، وهو مؤذن بشدة العضب ». [٢]

فضلاً عن شدة وقعها، وقوة جرس لفظها، ففيها شدة توحي بشدة التكذيب، والإصرار عليه، تبعه – كذلك- شدة في العذاب، وشدة في المقت عليهم، وما ربك بظلام للعبيد. [٣]

ومن بلاغة هذا الأسلوب: أن فيه إعادة لذكر العذاب من غير تكرار، فقد ذُكر العذاب مصرَّحاً به في قوله " إلا عذاباً "، بعد ذكره تضميناً في قوله: "فذوقوا"؛ إذ المعنى: ذوقوا العذاب، فتم ذكر العذاب مرتين من غير إعادة

(١) نظم الدرر: ٢١/ ٢٠٨ .

(٢) تفسير التحرير والتنوير: ٣٠/ ٤٢ .

(٣) يُنظر: في ظلال القرآن: ٦/ ٣٨٠٨ .

لفظه، وهذا من بلاغة القرآن الكريم، وعظيم إعجازه.

ومن جزالة هذا النظم: أن المكرر في هذا المقام، هو: العذاب، فيزدادوا غماً على غمهم، ومن هنا يتضاعف حزنهم، وتزيد آلامهم، ومن هنا كانت هذه الآية أشد آية على الكافرين، وأقسى على أسماعهم وهم في النار.

يقول الزمخشري في الإشارة إلى شدة المقت الذي تضمنته: - فبعد أن ذكر بلاغتها، ذكر أن ذلك شاهد على أن المقت من الله – سبحانه وتعالى- على الكافرين قد تبالغ[1]، وأكد هذا الأمر أبو السعود بقوله:« وفيها من الدلالة على تبالغ الغضب ما لايخفى ». [2]

وبسبب ما تضمنته هذه الآية كانت أشد ما في القرآن الكريم على أهل النار؛ وذلك أنها « تدل على أنهم كلما استغاثوا من نوع من العذاب أُغيثوا بأشد منها، فتكون كل مرتبة منه متناهية في الشدة، وإن كانت مراتبه غير متناهية، بحسب العدد والمدد ». [3]

ومن هنا كانت هذه الآية – كما يذكر السعدي –« أشد الآيات في شدة عذاب أهل النار، أجارنا الله منها ». [4]

(١) يُنظر: الكشاف: ٣٠/ ٤٢ .

(٢) إرشاد العقل السليم: ٩/ ٩٢٠ .

(٣) حاشية محيي الدين زادة على تفسير البيضاوي: ٤/ ٦٠٨ .

(٤) تيسير الكريم الرحمن: ٥/ ٣٦٢ .

الخاتمة

وبعد: فهاهي نهاية المطاف، وخاتمة البحث لهذا الإبحار الماتع، ولهذه الصحبة المباركة لآيات الذوق في القرآن الكريم، سعدت بصحبتها، والعيش في رحابها، بعد ذلك كله تصل هذه الدراسة إلى خاتمتها، وتقف عند نهايتها، علها تكون حققت غايتها، وبلغت مبتغاها، وثمة نتائج أمكن الاهتداء إليها من خلال هذه الدراسة، وهي كما يأتي:

أولاً: تعددت مقامات مادة (الذوق) في القرآن الكريم، بلغت هذه المقامات إحدى عشرة مقاماً، وكما تعددت مقاماتها، فتنوعت - كذلك – صيغها، بناء على الغرض الذي سيقت له، والمقام الذي وردت فيه، كذلك تفاوت عدد ورود مادة (الذوق) في هذه المقامات.

ثانياً: وردت مادة (الذوق) في القرآن الكريم (٦٤) أربعاً وستين مرة، مقسمة على كل من العهد المكي، والعهد المدني، في (٢٧) سبع وعشرين صيغة متنوعة.

ثالثاً: وردت مادة (الذوق) في العهدين: المكي، والمدني، وإنْ كان وورودها في العهد المكي أكثر من العهد المدني؛ بناء على اختلاف المخاطبين، واختصاص كل عهد منهما بخصائص موضوعية وأسلوبية تميزه عن الآخر، ولكثرة ورودها في العهد المكي ارتباط بحال القوم الذين خُوطبوا بهذه الآيات، وهم كفار قريش، فموقفهم من القرآن الكريم، وممن نزل عليه هذا القرآن ساغ معه مخاطبتهم بهذه الآيات التي تضمنت مادة (الذوق)، بما فيها من قوة وجزالة، وسبك وإحكام.

رابعاً: أكثر المقامات التي وردت فيها مادة (الذوق) هو: مقام الحديث عن

عذاب الآخرة، بلغت الآيات الواردة في هذا المقام ثلاثاً وثلاثين آية، جلها في العهد المكي، وهذا يدل على أن القرآن الكريم في العهد المكي كان يخاطب كفار قريش، وهو منكرون للبعث كل الإنكار، جاحدون له، وكفروا بالحساب والجزاء، ومن ثَم جاءت هذه الآيات تذكرهم وتتوعدهم بالبعث والحساب، وأنهم مبعوثون ومحاسبون على أقوالهم وأفعالهم، وأنهم داخلون النار، ومعذبون فيها، ولن يجدوا مناصاً ولا مهربا من ذوق هذا العذاب، وهذا منسجم تماماً مع أحد أهم مقاصد القرآن المكي، وهو التهديد والوعيد والإنذار للكفار، ولهذا السبب كثر ورود مادة (الذوق) في هذا المقام، في العهد المكي، بل يكاد يكون هذا الأمر سمة بارزة، وخاصية من الخصائص الموضوعية للآيات في العهد المكي.

خامساً: إن أكثر استعمال مادة (الذوق) في لغة العرب في المعاني المجازية، فبذلك جرت بها ألسنة هؤلاء العرب الأقحاح شعراً ونثراً، وكذلك في القرآن الكريم، فجميع استعمال القرآن لهذه اللفظة في المعاني المجازية، ما عدا موضع واحد فقط، ولا عجب، فقد نزل بلسان عربي مبين، فجاء استخدام القرآن الكريم لمادة (الذوق) امتداداً لاستخدام العرب لها، فتجلت بلاغة القرآن وإعجازه في توظيف هذه المعاني في تحقيق أغراض القرآن ومقاصده.

سادساً: تنوعت المقامات التي جاءت فيها مادة (الذوق)، فتأتي في مقامات الشر والخير، وإن كان الأكثر وروداً لها في مقام الشر، وفي مقام العذاب في الدنيا والآخرة.

سابعاً: إن دلالة مادة (الذوق) تختلف من مقام إلى مقام، والأغلب في دلالتها في الدنيا أنها تشير إلى معنى القلة، والنزر القليل، ومقدمة الأمور، بيد أن هذه الدلالة تضمحل وتتلاشى في الآخرة، فهي في مقام عذاب الآخرة تدل على الشدة، وعِظم الشيء، وشدة المقت.

ثامناً: صحب دلالةَ (الذوق) في النظم القرآن كثيرٌ من الأساليب البلاغية: كالحذف، والإيجاز بنوعيه، وعبارات الوعيد والتهديد.

وفي ختام هذا البحث أوصي بالإقبال على القرآن الكريم: دراسة وبحثاً، ونظراً وتأملاً؛ والدعوة إلى المزيد من الدراسات المتخصصة: تنظيراً وتطبيقاً؛ وذلك أن إعجاز القرآن الكريم لا تحيط به دراسة، ولا يحويه مؤلف، فلا يكشفه إلا تعاقب العلماء عليه، وتعدد الدراسات فيه وتنوعها؛ إذ لا تنقضي عجائبه، ولن ينفرد أحد ببيان إعجازه، فلا بد من تضافر الجهود، وحشد الطاقات، وشحذ الهمم والنفوس؛ للنظر في بلاغته وإعجازه.

والحمد الله الذي بنعمته تتم الصالحات

مصادر البحث ومراجعه :

- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، لأبي السعود محمد بن محمد العمادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د ـ ت) .
- أساس البلاغة، لجار الله الزمخشري، دار ومطابع الشعب، القاهرة: ١٩٦٠م .
- الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال، لابن المنير المالكي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ١٣٩٢هـ .
- آل حم: غافر وفصلت: دراسة في أسرار البيان، للدكتور محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، القاهرة، ط: الأولى ١٤٣٠هـ .
- الإيضاح في علوم البلاغية، للخطيب القزويني، حققه وعلق عليه وفهرسه: الدكتور عبدالحميد هنداوي، مؤسسة المختار، للنشر والتوزيع، القاهرة، ط: الثالثة، ١٤٢٨هـ .
- البرهان في علوم القرآن، للإمام بدر الدين الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة دار التراث(د ـ ت).
- البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، د. محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، القاهرة: ط: الثانية، ١٤٠٨هـ .
- البيان والتبين، لأبي عثمان الجاحظ، تحقيق: عبدالسلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط: الخامسة: ١٤٠٥هـ .
- تأويل مشكل القرآن، لأبي عبيد بن مسلم بن قتيبة، شرحه ونشره السيد أحمد صقر، دار التراث القاهرة، ط: الثانية: ١٣٩٣هـ .
- تفسير البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسين دارسة وتحقيق وتعليق:

الشيخ عادل أحمد عبدالموجود، والشيخ على محمد معوض، ود. زكريا عبدالمجيد النوني، ود. أحمد النحولي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الأولى: ١٤١٣هـ .

- تفسير القاضي البيضاوي، طُبع مع حاشية محيي الدين زادة، دار إحياء التراث العربي، بيروت. (د ـ ت).
- تفسير التحرير والتنوير، للشيخ محمد بن طاهر بن عاشور(د ـ ت).
- تفسير القرآن العظيم، للحافظ عماد الدين ابن كثير، قدم له عبدالقادر الأرناؤوط، دار السلام، الرياض، ط: الأولى: ١٤١٣هـ .
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي، تقديم: محمد النجار، تصحيح : محمد البسام، دار المدني؛ جدة، ١٤٠٨ هـ .
- تفسير الجلالين، لجلال الدين أبي بكر السيوطي، دار الكتب العملية، بيروت(د ـ ت).
- التفسير البسيط، لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي، تحقيق مجموعة من الأساتذة، أشرف على طباعته وإخراجه: الدكتور عبدالعزيز بن سطام آل سعود، والأستاذ الدكتور تركي بن سهو العتيبي، عمادة البحث العلمي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة الأولى: ١٤٣٠هـ
- التفسير الكبير، للإمام الفخر الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط: الثالثة.

- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق: عبدالله بن عبدالمحسن التركي، بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية، بدار هجر.
- حاشية زادة على تفسير البيضاوي، لمحي الدين شيخ زادة، دار إحياء التراث العربي بيروت (د ـ ت).
- خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، د. عبدالعظيم إبراهيم مطعني، مكتبة وهبة، القاهرة، ط: الأولى: ١٤١٣هـ .
- دراسات جديدة في إعجاز القرآن: مناهج تطبيقية في توظيف اللغة، للدكتور عبدالعظيم إبراهيم المطعني، مكتبة وهبة، القاهرة، ط: الأولى، ١٤١٧هـ .
- ديوان أمية بن أبي الصلت، جمع وتحقيق ودراسة عبدالحفيظ السطلي.
- ديوان الحطيئة، برواية وشرح ابن السكيت، تحقيق نعمان محمد أمين طه، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط: الأولى ١٤٠٧ هـ .
- ديوان الشماخ بن ضرار الذبيانين حققه وشرحه صلاح الدين الهادي، دار المعارف، مصر.
- صحيح سنن ابن ماجة، تأليف محمد ناصر الدين الألباني، مكتب التربية العربي لدول الخليج، الرياض، ط: الثانية، ١٤٠٨ هـ .
- صحيح مسلم، للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري، دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض، ط: الأولى، ١٤١٩هـ .
- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، للعلوي، دار

الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٢هـ .
- علم البيان دراسة تحليلية لمسائل علم البيان، د. بسيوني عبدالفتاح فيود، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، ط:٢، : ١٤١٨هـ .
- علم المعاني دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني،د. بسيوني عبدالفتاح فيود، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، ط:١، : ١٤١٩هـ
- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية في علم التفسير، لمحمد بن علي الشوكاني، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٣هـ .
- الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية، لسليمان بن عمر العجيلي، الشهير بالجمل، ضبطه وصححه، وخرج آياته: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الأولى، ١٤١٦هـ .
- في ظلال القرآن، سيد قطب، دار العلم للطباعة والنشر، جدة، ط: الثانية عشرة: ١٤٠٦هـ .
- كتاب التعريفات، للشريف علي بن محمد الجرجاني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الثالثة، ١٤٠٨هـ .
- كتاب الحيوان، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق وشرح: عبدالسلام محمد هارون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط: الثالثة، ١٣٨٨هـ .
- كتاب الصناعتين، لأبي هلال العسكري، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، و على محمد البجاوي، دار الفكر العربي، ط: الثانية.
- الكشاف في حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، لأبي

القاسم جار الله محمود الزمخشري، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ١٣٩٢هـ .

- الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، لأبي البقاء أيوب بن موسى الكفوي، قابله على نسخه، ووضع فهارسه: د. عدنان درويش، ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط: الأولى، ١٤١٢هـ .
- لسان العرب، لابن منظور، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط: الثالثة: ١٤١٣هـ .
- متشابه النظم القرآني في قصة آدم عليه السلام، للدكتور عبدالجواد محمد طبق، دار الأرقم للطباعة والنشر، الزقازيق، ط: الأولى: ١٤١٣هـ.
- مجمع الأمثال، للميداني، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل، بيروت، ١٤١٦هـ
- محاسن التأويل، لجمال الدين القاسمي، علق عليه وخرج آياته وأحاديثه محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء الكتب العلمية.
- معالم التنزيل، للبغوي، إعداد وتحقيق: خالد عبدالرحمن العك و مروان سوار، دار المعرفة، بيروت، ط:٢، ١٤٠٧هـ .
- معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، د. أحمد مطلوب، مكتبة لبنان، ط: الثانية، ١٩٩٦م .
- معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسن بن فارس، تحقيق: عبدالسلام هارونن دار الجيل، بيروت، ط: الأولى: ١٤١١هـ .
- معجم القراءات القرآنية، للدكتور أحمد محمد مختار، والدكتور عبدالعال

سالم مكرم، عالم الكتب، ط: الثالثة، بيروت، ١٩٩٧م .
- مفتاح العلوم، لأبي يعقوب السكاكي، المكتبة العلمية الجديدة، بيروت.
- مقدمة العلامة ابن خلدون، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٩٩١ م .
- مقدمة في خصائص الخطاب القرآني بين العهدين المكي والمدني، د. السيد عبدالمقصود جعفر، دار الطباعة والنشر الإسلامية، الطبعة الأولى: ١٤١٣ هـ .
- مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح، لابن يعقوب المغربي، نشر أدب الحوزة، توزيع مكتبة الباز، طُبع ضمن شروح التلخيص.
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي محمد بن عطية الأندلسي، تحقيق: عبدالسلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى: ١٤١٣هـ
- المطول في شرح تلخيص المفتاح، لسعد الدين التفتازاني، المكتبة الأزهرية للتراث، ١٣٣٠هـ
- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، وضعه محمد فؤاد عبدالباقي، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٧هـ.
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، لبرهان الدين البقاعي، دار الكتاب الإسلامي القاهرة، ط: ٢ : ١٤١٣ هـ .